

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

العدد: ٤٩ رمضان ١٤١٦هـ السنة الخامسة عشرة



الإسلام.. وهموم الناس

أحمد عبادي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم



الإسلام.. وهموم الناس

الطبعـة الأولى

رمضان ١٤١٦هـ

كانون الثاني (يناير) – شباط (فبراير) ١٩٩٦م

٢١٠
أحمد عبادي
الاسلام .. وهموم الناس / تاليف أحمد عبادي . ـ الدوحة :
وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية ، ١٩٩٦ .
١٥٧ص ، ٢٢ سم ـ (كتاب الأمة ، ٤٩)
أيداع : ٦ / ١٩٩٦
الرقم الدولي (ردمك) : ٠ ـ ٣٧ ـ ٢٣ ـ ٩٩٩٢١
أ. العنوان ب . السلسلة



صدر منه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

« طبعة ثالثة » - الشيخ محمد الغزالي

- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف

« طبعة ثالثة » - الدكتور يوسف القرضاوي

- العسكرية العربية الإسلامية

« طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- حول إعادة تشكيل العقل المسلم

« طبعة ثالثة » - الدكتور عماد الدين خليل

- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

« طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق

- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري

« طبعة ثالثة » - الدكتور محسن عبد الحميد

- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين

« طبعة ثالثة+طبعة إنجليزية » - الدكتور نبيل صبحي الطويل

- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

« طبعة ثانية » - عمر عبيد حسنه

- أدب الاختلاف في الإسلام

« طبعة ثانية » - الدكتور طه جابر فياض العلواني

- **التراث والمعاصرة**

«طبعة ثانية» – الدكتور أكرم ضياء العمري

- **مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي**

«طبعة ثانية» – الدكتور عباس محجوب

- **المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل**

«طبعة أولى» – عبد القادر محمد سيلا

- **البنوك الإسلامية**

«طبعة أولى» – الدكتور جمال الدين عطية

- **مدخل إلى الأدب الإسلامي**

«طبعة أولى» – الدكتور نجيب الكيلاني

- **المخدرات من القلق إلى الاستعباد**

«طبعة أولى» – الدكتور محمد محمود الهواري

- **الفكر المنهجي عند المحدثين**

«طبعة أولى» – الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

- **فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار**

الجزء الأول والثاني «طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ عمر عبيد حسنة

- **قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر**

«طبعة أولى» – الدكتور زغلول راغب النجار

- دراســــــة فــي البـنـاء الحــــــضــــــاري

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمود محمد سفر

- في فــقــه الــتـدين فــــهـمًـا وتــــنـزيـلاً

الجزء الأول والثاني والطبعة الأولى +طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبدالمجيد النجار

- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات - التوزيع - الاستثمار - النظام المالي)

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور رفعت السيد العوضي

- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية - دراسة مقارنة

، طبعة أولى ،+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمد احمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- أزمـتنا الحـضـارية في ضـوء سنة الله في الخلق

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد محمد كنعان

- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- مــقــالات في الدعــوة والإعــلام الإســلامي

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشـخصـية المسلمة أو الإنسان الصـالح

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **الصحوة الإسلامية في الأندلس**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني

- **اليهود والتحالف مع الأقوياء**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- **الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري

- **النظم التعليمية عند المحدثين**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ المكي اقلاينة

- **العقل العربي وإعادة التشكيل**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور عبد الرحمن الطريري

- **إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- **أسباب ورود الحديث**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد رافت سعيد

- **في الغزو الفكري**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي (الجزء الأول) + (الجزء الثاني)**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أكرم ضياء العمري

- **فقه تغيير المنكر**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- **في شرف العربية**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور إبراهيم السامرائي

- **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ برغوث عبد العزيز بن مبارك

- **الإسلام وصراع الحضارات**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد القديدي

- **رؤية إسلامية في قضايا معاصرة**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عماد الدين خليل

- **المستقبل للإسلام**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد علي الإمام

- **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (الجزء الأول) + (الجزء الثاني)**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ فريد الأنصاري

قال تعالى :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ⑦ ﴾

(سورة الماعون)

تقـــــديم

بقلم : عمـر عبيـد حسنــــه

الحمد لله، الذي جعلنا بنعمة الإيمان إخوانًا، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: ١٠)، وجعل من لوازم استمرار خيرية الأمة المسلمة، وتميزها عن سائر الأمم، السائدة منها، والبائدة، حمل الحق، والدفاع عنه، ومحاربة الظلم، وحماية المظلومين من الناس، أينما كانوا، فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، بل جعل الغاية من النبوات، وعلى الأخص النبوة الخاتمة: إلحاق الرحمة بالناس جميعًا، بالعالمين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وشرع الجهاد وأوجبه، وهو: بذل الجهد، بالنفس والمال، دفاعًا عن الحق، واسترداداً لإنسانية الإنسان، وتحقيقًا لحريته، في الاختيار، والحيلولة دون الفتنة، وحماية للمستضعفين، من الرجال، والنساء، والولدان، فقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥).

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والنعمة المُسداة، الذي عانى في طفولته، وشبابه، وشيخوخته، معاناة الناس، وعاش همومهم، من اليُتْم، والفقر، والمناخ، والطعام، والشراب، والصحة، والمرض، والعمل عند أهل مكة على قراريط، فجاء رسولاً منهم، من داخلهم، ومن خلال معاناتهم، وظروفهم، وواقعهم، فادرك مشكلات الناس، فاصبح مؤهلاً لمنحة النبوة: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، ليكون النبي، المنقذ، وأنموذج التغيير، ومحل الاقتداء والتأسي على الزمن، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

وكانت حياته المستمرة، انتصاراً للفقراء والمساكين، ودعاؤه الدائب: **«اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين»**(صحيح، رواه ابن ماجه، والطبراني)، فهو إلى جانب هموم الناس، من الفقراء والمساكين، وفي صفوفهم حياة، وموتًا، وحشرًا.

وبعد:

فهذا كتاب الأمة، التاسع والأربعون: (الإسلام وهموم الناس)، للأستاذ أحمد عبادي، في سلسلة الكتب التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، مساهمة في تحقيق الوعي بمقاصد الدين، واسترداد المعاني الغائبة في العلم والعمل، وإعادة تشكيل المسلم المعاصر، الذي يثير الاقتداء، ويستشعر مسؤوليته الكاملة، تجاه نفسه، وأمته، والإنسانية جمعاء، ومحاولة اكتشاف مواطن

الخلل والإصابات التي لحقت بالأمة، ودراسة أسبابها، ومعالجتها وفق السنن والقوانين الإلهية، في الأنفس والآفاق، وترميم آثارها في النفس والمجتمع، والمشاركة في تجديد أمر الدين، والعودة بالتدين إلى المنابع الأصلية، في الكتاب والسنة، ونفي البدع ونوابت السوء، والاعتصام بالكتاب والسنة، حماية للتدين من تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين، استجابة لتكليف الرسول ﷺ، بقوله: **«يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه: تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»** (رواه البيهقي).

ولعل من أهم ما تميزت به النبوة تاريخيًا، عن الأفكار والنظريات والفلسفات الوضعية أنها إيمان وعمل، فكر وفعل، نظرية وتطبيق، شعارات وشعائر، إضافة إلى أنها توفرت على القضية الأولى والأهم، وهي استرداد إنسانية الإنسان، وإخراجه من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان الوضعية، إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، كما لخصها رِبْعِي بن عَامر، رضي الله عنه، ونَسْخ تحكم الطواغيت والظَلَمَة، وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان، وإعلان المساواة الإنسانية، وتقرير وحدة الجنس البشري، وتحطيم فوارق اللون والعرق والجنس، وسائر الفوارق القسرية والدعوات التعصبية، وجَعْل ميزان الكرامة: التقوى والعمل الصالح.. ذلك أن التقوىٰ أمر كسبي وفرصة متكافئة، الارتقاء إليها بمقدور الناس جميعًا.. فلا عجب إن كانت قضية التحرير، واسترداد إنسانية الإنسان، وتحقيق توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، هي القضية الأولى، والأمر المحوري، الذي دارت عليه النبوة، واستغرق معظم جهودها وجهدها، زمانًا ومكانًا، وسلطانًا وبرهانًا، لأن ذلك كان ولا يزال يشكل نقطة الانطلاق في استرداد الإنسان، محل الدعوة، وتخليصه من العبودية لغير

الله، كما أسلفنا، وتحضيره وتأهيله، والقضاء على قابليات الذل والهوان، حتى يصبح بشراً، سويًا، مكرمًا، مؤهلاً لحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال، وأشفقن منها، وحملها الإنسان.. فما قيمة أن يكسب الإنسانُ متاعَ الدنيا، ويخسر نفسه، ومصيره؟!

لذلك بالإمكان القول: إن موضوع النبوة ومحلها، وسبب جهادها، تاريخيًا، كان الإنسان، وهموم الإنسان، وقضايا الإنسان، ومصير الإنسان، وتحرير الإنسان من العبودية البشرية، والارتقاء به إلى عبادة الله، وكانت غاية الدين: إقامة الحياة الطيبة، أي أن الدين للحياة، في المعاش والمعاد، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧).

وكان الإعراض عن الدين، سقوط لإنسانية الإنسان، وعمى في البصيرة، ودخول في حياة الضنك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٤)، فهو مطموس البصيرة في الدنيا، وأعمىٰ البصر في الحشر والمعاد.

من هنا نقول: إن دعوات، ومحاولات، عزل الدين عن الحياة، وإبعاده عن هموم الناس، والعدول عن أحكامه، وجعله شأنًا شخصيًا، وأمرًا فرديًا مجاله ضمير الإنسان، بعيداً عن مسالكه وممارساته، هو تدمير لشخصية الإنسان، وانشطار بين فكره وقناعاته، وواقعه الذي لا ينتمي إلى هذه القناعات بصلة، بحيث يستمر إنسانًا مأزومًا، عدوانيًا.

إن دعوات عزل الدين عن الحياة، وهموم الناس، ومعالجة مشكلاتهم،

والانتصار إلى قضاياهم، هي مؤامرة كبرى على الإنسان نفسه، وعودة إلى تسليط الإنسان على الإنسان، والتمكين لعبودية البشر، ذلك أن الإنسان هو المخلوق المتدين، كما يرى علماء الاجتماع، فلا إنسان بلا دين، والذي لا يدين دين الحق، فسوف يقع بأديان باطلة.. والذين يحاربون الدين، ويحاولون عزله عن الحياة، بعد أن عجزوا عن استئصاله من الفِطرة البشرية، إنما يحاربونه، ليقيموا من أنفسهم آلهه، ويضعوا للناس تشاريع، وأديان، تمكنهم من التسلط، واستلاب إنسانية الإنسان.

والذين يفهمون التدين على أنه انسحاب من الحياة، وابتعاد عن هموم الناس، ومعالجة مشكلاتهم وقضاياهم، والذين يعيشون في المقابر، بدل الحواضر والمدن والحياة، ويؤولون الدين تأويلات جاهلة، تؤدي إلى العطالة والانسحاب، فإن فهمهم بحاجة إلى المراجعة والتصحيح.. والذين يفهمون أن غاية ما في التدين، هو أداء الصلاة، والصيام، والحج... الخ، بعيداً عن المساهمة في قضاء حاجات الناس، ومعالجة مشكلاتهم، ومجاهدة الظلمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن فهمهم بحاجة أيضاً إلى إعادة المراجعة والتقويم.. ولو صاموا، وصلّوا، وحَجُّوا، وزكُّوا، يبقى إيمانهم منقوصاً.

وقد تكون المشكلة، كل المشكلة، بفهمهم ، وظنهم، أن هذه هي صورة وحقيقة التدين المطلوب، بعيداً عن سيرة الرسول ﷺ، وفَهْم خير القرون، وممارساتهم، ولا يكتفون بهذا الفهم المعوج، وإنما يستدلون على صواب تدينهم، بسلامتهم من الأذى والمشكلات، وبُعدهم عن أن تنالهم يد الظلمة، وتقع بهم الفتنة، دون أن يدروا أن الذي ينسحب من الحياة، ويخرج من الحاضر والمستقبل، هو إنسان خارج الاجتهاد والعقل والتفكير،

لا يخطئ ولا يصيب أيضاً، فهو يساوي العدم، لأنه يلغي نفسه، ودوره، ورسالته، ويعيش في المقابر ، لكن مع وقف التنفيذ، أي وقف الدفن، ودليل ذلك أن بعضهم يستغيث ويتوسل بالأموات، ويلتحق بهم، لأنه لايحاسب على ذلك، بل يظن أنهم، وهم الأموات، أكبر قدرة منه على قضاء حاجاته، ومعالجة مشكلاته. وهذا الرصيد السلبي من المتدينين، قد يحقر الإنسان صلاته أمام صلاتهم، وحجه أمام حجهم، وصومه أمام صومهم.

وهذه الظواهر السلبية الخطيرة، في الانسحاب من الدنيا، والخروج من حَمْل هَمِّ الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا أدري كيف تنسجم مع الإسلام، الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، لتقويم مسيرة الحياة، ومدافعة الظلم والظالمين، حتى لو كَلَّفَ ذلك الإنسانَ عُنُقَهُ، إذا كانت المدافعة منضبطةً بالضوابط الشرعية، والرسول ﷺ، يقول: «سيد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فامره ونهاه، فقتله» (حديث حسن، رواه الحاكم من حديث جابر)؟! فليست الغاية هنا القتل، وإنما يصبح القتل غاية بحد ذاته، في مرحلة معينة، عندما يحقق يقظة أمة، وفضح الظلم والظالمين.

هذه الظواهر السلبية، من انتقاص في التدين، وانحسار في الفهم، وغياب في الفقه، وإدراك وظيفة الدين في الحياة، ليست جديدة، ولا مبتكرة، فهي موجودة ومستمرة، لكنها تضيق وتتسع، بحسب درجة الوعي الإسلامي.. وهي في النهاية، لون من العلمنة الذاتية للإسلام، أي علمنة الإسلام على يد أهله، وعزله عن الحياة وتقويمها بقيم الإسلام،

ليصبح شأنًا فرديًا، وعلاقة بين الفرد وربه، بعيداً عن هموم الناس.. وهذا مُبْتَغَىٰ الظلمة، ومحل تشجيعهم وإطرائهم.

وقد لاحظ عبد الله بن المبارك -من تابعي التابعين- العالم، العامل، المجاهد، رحمه الله، هذه الإصابات المبكرة، فلخص حالة التدين، وعوج الفهم الذي بدأ يتسلل إلى المسلمين، ويؤدي إلى انتقاض الإسلام، بقوله:

يَا عَابدَ الحَرَمَيْنِ لو أبْصَرْتَنَا	لَعَلِمْتَ أنَّك في العبادةِ تَلْعَبُ
مَن كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بِدُمُوعِهِ	فَنُحُورُنا بدِمَائنا تَتَخَضَّبُ
أو كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ في بَاطِلٍ	فَخُيُولُنا يومَ الصَّبيحةِ تَتْعَبُ
رِيحُ العَبِيرِ لَكُمْ، ونَحنُ عَبيرُنا	رَهْجُ السَّنَابِكِ والغُبَارُ الأَطْيَبُ
وَلَقَد أتَانَا من مَقَالِ نَبِيِّنَا	قَولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لاَ يَسْتوي غُبَارُ خَيْلِ اللهِ في	أنْفِ امرِيءٍ ودُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بينَنَا	ليسَ الشهيدُ بميتٍ، لا يُكْذَبُ

حيث تصبح العبادة، لونًا من اللعب والعبث، بعيدة عن حكمتها ومقاصدها، وثمراتها في النفس والمجتمع.. وما أكثر مخادعة النفس اليوم، بصور من التدين المنقوص، والعبادة الحسيرة، حيث يظن الناس معها، وَهْم العافية.

إنه فقه التذلل والخنوع، وعبادة الذل والخضوع أيضًا، بعيداً عن قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٤١)، وقوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ (طه: ٢٤).. وهذا بلا شك لون من الغزو الثقافي في المجال الديني، حيث

أصبح ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، بعيداً عن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (آل عمران: ١٨٩).

ولا شك أن هذا اللون من التدين، يرعاه الظلمة، كما أسلفنا، ويشجعه سَدَنة الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، ويُرَوِّجُون له، ويمتدحونه، ويعتبرونه معياراً للتدين السليم، ويصورون ما وراءه من المجاهدة والمدافعة، نوعًا من المغالاة، واستغلال الدين وتسييسه، حيث يغيب العلماء العدول العاملون، الذين يحملون العلم الشرعي، وتنشأ طبقة علماء السوء، الذين يدافعون عن الاستبداد، ويتصيدون له المبررات.

ولابد من الاعتراف، أننا نعيش اليوم مرحلة جديدة من قراءة الإسلام، بأبجدية علمانية، ولئن كانت في الماضي، تأتي من الخارج الإسلامي، فتشكل تحدياً، واستفزازاً، يستنفر الأمة، ويجمع طاقاتها، ويقضي على الجوانب الرخوة في حياتها، ويعيد حصانتها، ويجدد شبابها، فهي اليوم، تأتي من الداخل الإسلامي، وتتسلل على يد طبقات من المخرفين، والصوفية المنحرفة، والمرجئين الجدد، بعيداً عن أية مسؤولية تجاه الأمة، فتستوعب هذه الصور من التدين، وتغري السذج والبسطاء، الذين يخادعون أنفسهم بهذا اللون من التدين الخادع، والاطمئنان الكاذب، البعيد عن أية تبعة، أو على يد مجموعة من فقهاء العصر، أصحاب العقل المستنير!! الذين يحاولون تقطيع الرؤية الإسلامية، والانتقاء منها، ومحاصرتها في أسباب النزول، من حيث الزمان والمكان، واستخدام بعض الآيات والأحاديث، وعلى رأسها، قول الرسول ﷺ: **«أنتم أعلم بأمر دنياكم»** (رواه مسلم عن انس وعائشه)، للتفريق بين الدين، وتعاليمه وعباداته، والدنيا وتشريعاتها وعلاقاتها... بعيداً عن البيان النبوي، وفَهْم خير القرون، وبذلك يفرقون بين الرسول النبي ﷺ، الواجب الاتباع، والرسول الحاكم المجتهد، الذي

يخطئ ويصيب، ويقررون أن لا علاقة للوحي باجتهاد الرسول ﷺ كحاكم، لذلك فلا بأس أن يقيم الإنسان الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، في ممارساته الفردية، ومسالكه الشخصية، أما في مجال الحكم والمجتمع، ومعالجة هموم الناس، فليس مطلوبًا منه شرعًا الاقتداء بسنة الرسول ﷺ!!

وليس ذلك فقط، حتى في مفهوم العبادة الخاص، يحاولون تقسيم السنن إلى سنة عادة، غير واجبة الاتباع، وسنة عبادة، واجبة الاتباع، أما الضوابط لهذا التمييز، فهي الأمزجة الشخصية، وما يتوهم من المصالح، وليس المناهج والضوابط الشرعية.

وهنا قضية تكاد تكون أصبحت من المسلمات، وهي أن إلغاء النزوع إلى الدين، وتبديل خلق الله، ومحاولة اقتلاع الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، قال تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠)، بات أمراً مستحيلاً، لمن يستقرئ التاريخ، ويقرأ الواقع، على الرغم من كل الممارسات، التي لا تزال مستمرة.. وما سقوط الاتحاد السوفيتي بأيدلوجياته وفلسفاته، وعودة الإنسان إلى فطرته، التي فطره الله عليها، إلا دليل على أنه لا إنسان بلا دين.

فإذا كانت محاولات إلغاء الدين قد أخفقت، وباءت بالفشل، فلابد من التحول إلى صناعة لون من التدين، يشبع نزوع الناس، ويخدرهم، ويشيع بينهم نوعًا من الاطمئنان الكاذب، دون أن يكون له أي أثر تغييري، أو إيجابي، في حياة الناس، وتقويم سلوكهم بشرع الله.. وفي ضوء ذلك، يمكن أن نفسر تطور الطروحات العلمانية، التي كانت تقوم على مناقضة الدين وإلغائه أصلاً، فتحولت اليوم إلى دعوة لتحييده، وإبعاده عن حكم المجتمع، وجعله شأناً شخصياً، وليس لإلغائه.

ولعل من الصور الخطيرة، والبدع الفكرية، التي بدأت تتسلل إلى العقل المسلم، تحت شعارات وعناوين بَرَّاقَة -ولكل بدعةٍ بريقُها الخادع- لتخرجه من الساحة، ولتطفئ فاعليته، وتفرغها في أوعية نظرية، بعيدة عن هموم الناس، ومعالجة مشكلات الأمة، واستشعار المسؤولية، محاولات إدخال المسلمَ بِدَهَالِيز الفلسفةِ الفكرية والنظريات المعرفيةِ، تحت عناوين: إصلاح مناهج الفكر! وهي في الحقيقة إفساد للفكر ومناهجه، على حساب مشكلات الأمة الحقيقية والملحة.. إنه الهروب من مقتضيات العقيدة وتبعاتها، إلى دهاليز الفلسفة وغيبوبتها وبرودها، والتحلل من كل الضوابط الشرعية، واحتضان كل أصحاب الأفكار الشاذة، وتمكينهم من المنابر الإسلامية، لاغتيال العمل الإسلامي الجاد.

وقضية أخرى، يمكن أن تقع في الصميم من هموم الناس، ومشكلاتهم، وقضاياهم، وتقويم مسالكهم بشرع الله، وهي قضية تطبيق الشريعة الإسلامية، أو الدعوة إلى تطبيق الشريعة، والجدل الكلامي، الذي يدور حول ذلك، واللجان المُشَكَّلة، من سنوات، لتحضير المجتمع، لتطبيق الشريعة الإسلامية، وإشفاق بعض الكتاب (الإسلاميين!) -إن صح التعبير- على دعاة تطبيق الشريعة، وحزنهم على عقولهم الساذجة، الداعية لذلك، واتهامهم بأنهم يمتلكون الدين، ويفتقدون العقل، ووصمهم بقلة الفقه، والعجز عن فهم الواقع، والدراية بتعقيداته ومشكلاته المعقدة، وأن المجتمع لَمَّا يُهَيَّأ بَعْدُ لتطبيق الشريعة الإسلامية، وأن الناس ما يزالون في حاجة وعوز، وخوف واضطراب، فكيف يطبق عليهم حد السرقة، وغير ذلك؟! وكأن الاجتهاد في العدول عن تطبيق الحد، في حالة الشدة، أمر خارج عن التطبيق الشرعي، والدعوة إلى التأني، وتحضير المجتمع، والتدرج، الذي أصبح يعني الوضع في الأَدْرَاج!! ولا أدري من أين دخلت علينا هذه المفهومات؟!

فالعدول عن تطبيق الحدود، لوجود المجاعة، وتطبيقها في حالة الكفاية، هو تطبيق للشريعة أيضاً، و ليس أمراً آخر، وكأن الشريعة في نظر هؤلاء الكتاب (الإسلاميين!) لا تساهم ببناء المجتمع الإسلامي وإقامته، وتقويم مسالكه بشرع الله، أو كأن تطبيق الشريعة لا علاقة له بتربية المجتمع، على القيم الإسلامية، والمساهمة بضبط مسيرته، ومعالجة مشكلاته!! وما قيمة التشريعات الإسلامية، إذا لم تساهم بارتقاء المجتمع، وإقامته، و بقيت معطلة مُحَنَّطة، حتى نقيم المجتمع المؤهل، وفي ضوء أية تربية وشريعة نؤهل المجتمع، حتى يصبح قابلاً لتطبيق الشريعة، ثم نطلب من الشريعة الإسلامية، أن تشرف لاستلام المجتمع، الذي أصبح كل شيء فيه جاهزاً؟ ولا أدري، ما هي مقومات تجهيز المجتمع، وتأهيله بعيداً عن إقامة شرع الله؟!

ولا أرى نفسي بحاجة إلى إيراد النصوص الشرعية -وما أكثرها- التي تبين البعد النفسي، والأمني، والتربوي، والاجتماعي، والسياسي، لتطبيق الشريعة، واستنقاذ الناس من معاناتهم، وما يقع عليهم من ظلم القوانين الجائرة، التي تكرس البُعد عن الإسلام، ولا تسهم بتحضير المجتمع لتطبيق الشريعة، ويكفي الإشارة إلى حديث النبي ﷺ، الذي أكد فيه أن: **«إقامة حَدٍّ من حُدودِ الله، خيرٌ من مَطرِ أربعين ليلةً في بلاد الله»** (رواه ابن ماجه عن ابن عمر).

لذلك أرى بأن المشكلات تزداد تفاقمًا، والمجتمع يزداد ابتعاداً، وجنوحًا، واستيلابًا، كلما أقصيت الشريعة الإسلامية، أو تأخر تطبيقها، لأنها تساهم في إقامة المجتمع الإسلامي، وحمايته في الوقت نفسه، وعلى الأخص إذا عرفنا أن الشريعة لا تعني فقط العقوبات، من حدود وتعزيرات، على الرغم من الدور التربوي والبنائي، الذي لا يمكن إنكاره لهذه

العقوبات، وإنما تعني شريعة الله الشاملة لحياة الفرد والمجتمع، والتعامل معه من خلال الحالة والاستطاعة التي هو عليها.

ولا أدري من حيث النتيجة، ما الفرق بين من يقول: بأن الشريعة الإسلامية إنما جاءت لمعالجة مشكلات عصر ماضٍ، وأنها لا تصلح للمجتمعات المعاصرة، بعد أن تطورت، وتعقدت مشكلاتها، وبين من يقول: بأن المجتمعات المعاصرة، بعد أن تطورت، وتعقدت مشكلاتها، لا تصلح لتطبيق الشريعة، إلا بعد إعادة التأهيل والتحضير؟ إلا إذا كان الفرق أن بعض هذه الأصوات تخرج من الداخل الإسلامي، وبعضها الآخر يأتي من الخارج الإسلامي، ليؤدي النتيجة نفسها، بحيث يُلغى الإسلام، بشتى المعاذير، ويعمل على إخراجه من الحواضر إلى المقابر.

إن إقصاء الشريعة عن واقع الحياة، ومعالجة هموم الناس، هو ـ كما أسلفنا ـ تحييدٌ للدين، ليصبح شأنًا فرديًا، بعيداً عن حكم الواقع، ووقوعٌ في التطبيق العلماني، الذي نتنكر له نظريًا، ونمارسه عمليًا، حيث نكتفي بالمساحات البسيطة على هوامش المجتمع، ويملك غيرنا قيادة المجتمع.

أما مقولة: (خذوا الإسلام جملة، أو دَعُوه)، فلنا معها وقفة بسيطة، بما يتسع له المقام هنا، وهي أنه مما لا شك فيه، أن الذي ينكر شيئًا من الدين، مما توافرت له شروط وضوابط النقل الصحيح، يعتبر كافراً بالدين كله، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (البقرة:٨٥)، وقال تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٤٩-٥٠)، وقال تعالى: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ (آل عمران: ١١٩)، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ (الأنفال: ٣٩).

فمقولة: (خذوا الإسلام جملة، أو دَعُوه) إذن هي صحيحة، ودقيقة، على مستوى الإيمان والتصور، وشمولية الرؤية، التي لابد أن يتوفر عليها المسلم، حتى ولو لم يمتلك الاستطاعة، التي تمكنه من القيام بالتكاليف كلها، في مرحلة أو مراحل من حياته، لأن المسلم متعبد باستطاعته، قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ (التغابن: ١٦)، لذلك نرىٰ أن التزام هذه المقولة بإطلاق، في المجال التطبيقي، يناقض استطاعة الإنسان، ويكلفه بما لا يطيق، ويناقض السنن الاجتماعية في التدرج في البناء، ويناقض مسيرة المنهج النبوي، ووضع لبناته، حتى الوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال.. لكن الذي نريد قوله: إننا ونحن نعيد البناء، في ضوء الظروف المحيطة، والإمكانات المتاحة، لابد لنا باستمرار من استصحاب الرؤية الشاملة، ومرحلة الكمال المراد بلوغها، وعدم اعتبار ما نحن عليه، يمثل الحالة النهائية المطلوبة، وإلا ساهمنا سلبيًا، في إبعاد الإسلام عن إمكانية التنزيل على الواقع، ووقعنا بتقطيع الصورة الإسلامية، وتبعيضها، كما فعل أهل الكتاب، وقد حذرنا الله من الوقوع في علل تدينهم.

وقضية أخرى، لعلها تعتبر من أخطر المداخل على الإسلاميين، ودعاة تطبيق الشريعة اليوم، واعتبار هذا التطبيق هو العلاج الوحيد، أو الحل

الوحيد، لحمل هموم الناس، ومعالجة مشكلاتهم، وهي أن الإسلاميين يفتقدون البرامج التفصيلية، والمشروعات الجاهزة، لمعالجة قضايا الأمة، في المجالات التربوية، والاقتصادية، والاجتماعية، التي يقدمونها للأمة، وإن امتلكوا المبادئ والقيم العامة، الأمر الذي يعني عجزهم، وعدم قدرتهم على حمل هموم الناس، ومعالجة مشكلاتهم، وقيادة المجتمع إلى المقاصد الإسلامية، مما يجعل دعواهم للحل الإسلامي، نوعًا من استغلال الدين، لأنهم بدل أن يفكروا بوضع البرامج المحددة والمدروسة، يقدمون للناس عبارات فضفاضة، وعموميات، لا تسمن ولا تغني من جوع، وإنما تعني المتاجرة بآلام الناس، دون القدرة على معالجة مشكلاتهم.. فمشكلات الناس، تعني الالتحام بهم، وتقديم برامج مدروسة، بعيداً عن إثارة العواطف، ومخاطبتهم من على المنابر فقط.

وهذا الكلام، فيه القليل من الحق، والكثير من التجني، فالحق القليل الذي فيه، أنه فعلاً لابد لدعاة الإسلام من النزول إلى المجتمع، والانخراط في قضاياه، والمساهمة بحل مشكلاته، في ضوء رؤية إسلامية، يتحقق لها فقه الحكم الشرعي، وفهم الواقع البشري، محل الحكم. فالحضور في كل المواقع، والنفرة إلى كل الثغور، وتعلم العمل إلى جانب تعلم العلم، وتحقيق الاختصاص، له فقهه الميداني، وفوائده الفكرية والتربوية.. إنه فقه الواقع، الذي لا يغني عنه فقه النص، وإنما يدعو إليه.. ويكاد الإنسان لايقبل بعد اليوم، القول: بأن الاقتصار على حفظ النص، وعدم الفقه بمقاصده، وتنزيله على الواقع، هو فقه فعلاً، لأن فهم الواقع من لوازم فقه النص.

لذلك، [illegible] أن نقول للناس: إن سبب [illegible]
البعد عن الإسلام، وأن الحل الإسلامي، هو العلاج لكل مشكلاتهم، دون أن ننزل من على المنبر، ونأخذ بأيديهم، في ضوء مناهج وبرامج مدروسة،

للعودة للإسلام، في ضوء إمكاناتهم، أو استطاعاتهم المتاحة، وظروفهم المحيطة، يصبح كلامنا دعوى بلا دليل، وكأننا نوبخ أنفسنا، ونكرر ذلك في خطبة الجمعة، كل أسبوع، وكل كتاب يصدر جديداً.. ونخشى أن نقول: إذا تأخر تقديم الخطط والبرامج، ورسم طريق العودة للإسلام، بعد الانسلاخ منه، والاكتفاء بإطلاق الشعارات، سوف يقود إلى سلبيات كثيرة، ليس أقلها إجهاض الشعار نفسه، وتراجع الإيمان، والتصديق به عملياً.

وأما الكثير،من التجني، والظلم، فهو في ادعاء خصوم الدعاة إلى الإسلام، بأن الإسلاميين يفتقدون الخطط والبرامج الإسلامية، التي يقدمونها للناس، لحمل همومهم، وحل مشكلاتهم.. فيمكن أن يعتبر الأمر مقبولاً، نوعًا ما، لو أن خصوم الإسلاميين، كانوا الأقدر والأجدر، وتقدموا للأمة ببرامج وخطط، لحل مشكلاتها، الأمر الذي يخولهم احتلال قيادة المجتمع، والمَسْك بزمام الأمور، بجدارة، وليس بزيف وبهتان، لكن البلاء هنا أعظم بكثير ، من الفقر بالبرامج، والمناهج، لأن حالهم أشبه بحال الفقير المتكبر..

إنهم يفاخرون ببرامج، ومناهج مستوردة ومنقولة من «الآخر»، دون أن يكون لهم حتى القدرة علىٰ النظر فيها، والاختيار منها، واختبار مدى ملاءمتها للأمة، لذلك زادوا الأمة خبالاً، وتخلفًا فكريًا، وقتلوا فيها، حتى قابلية النهوض مستقبلاً ـ في حين استطاع الإسلاميون الاحتفاظ بقابلية النهوض على الأقل ـ لأن ما استوردوه من المناهج والخطط والبرامج بشكل أعمىٰ، جاء مناقضًا لمعادلة الأمة الاجتماعية، ومجافيًا لروحها، وغريبًا عن ثقافتها وقيمها، ومصطدمًا بشخصيتها الحضارية، لذلك كرّس التخلف، وليس ذلك فقط، إنما أفقد الأمة القابلية، وإمكانية النهوض، وجعلها رهينة لحضارة «الآخر».

وفي تقـديري، أن الارتهـان، الذي نعـاني منه اليـوم، على مـخـتلف الأصعدة، الثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والتعليمية، والقانونية، وهذا السيل الدافق علينا من كل جانب، والذي يكاد يأتي على ثوابتنا، ويهـدد هويتنا ، ويقدم البرامج والمناهج ، لمعالجة قضـايانا، ومشـكلاتنا، وهمومنا – أو بتعبير آخر: يداوينا بالتي كانت هي الداء – إنما تمدد في مجـتـمعنا، واحتل أمـتنا، بسـبب الفـراغ، والعـقم عن الإنتـاج، وانطفـاء الفـاعليـة، والانسـحـاب من المواقع الفـاعلة، والابتـعـاد عن همـوم الناس ومـشـكلات المجتمع، وإخلاء المكان «للآخر» . . لقد أصبحنا أشبه بالأرض الواطئة، التي بسبب من تدنيها وانخفاضها، تصير محلاً لكل ما يُلقىٰ فيها من قاذورات الأمم، وهي بطبيعتها، وخبالها الذي انتهت إليه، عاجزة عن العطاء، ومؤهلة للأخذ، وهذه سنة الله في العمران، والاجتماع البشري.

ولا شك أن هذه الحال التي نحن عليها، لم تأت بالمصادفة، فكل شيء بقـدر، ولا هي وليـدة يوم وليلة، وإنما ثمرة لمقـدمـات وتحضـيرات، طويلة المدة، بعيدة المدى، توضعت في جسم الأمة، وأزمنت، بسبب غياب فقه أسباب السقوط والنهوض، وإصابة النخبة، والتخلي عن المسؤولية، ودمار شـبكة العلاقـات الاجـتـمـاعـيـة، لقـد أصـبـحت الأمـة كـالغَنَم في الليلة الشاتية . .

والحـقـيـقـة التي لابد من ذكـرها هنا : أن هـذه الإصـابات بقـدر مـا هي سقوطات وشبهات ثقيلة، وإصابات بالغة، تعيق النهوض، بقدر ما يمكن أن تتحول لتشكل تحديات واستفزازات، تستنفرُ هِمَم الأمة، وتجمع قواها، وتشحذ فاعليتها، وتمكنها من الإقلاع من جديد، استئنافًا لدورة حضارية

عالمية أخرى، أصبح العالم مهيأ لها، بعد سقوط إنسانية الإنسان، في حضارات التسلط، والإرهاب، والاستعمار، والعنصرية .. ذلك أن النظرة التحليلية للعالم اليوم، والتوغل في أعماقه، بعيداً عن السطوح، وفي حقائقه بعيداً عن الصور المصنوعة، تؤكد لنا أن الواقع العالمي، أصبح يتطلع للحضارة، التي تسترد إنسانية الإنسان، وتنادي بالمساواة، ووحدة الجنس البشري، وتوقف تسلط وعبودية الإنسان للإنسان .. يتطلع لحضارة إنسانية فعلاً، في مبادئها، وتاريخها، وممارساتها.

ولست بحاجة إلى العودة إلى ذكر مقومات وسمات الخلود، وعوامل الإمكان المستمرة، للإقلاع الحضاري من جديد، وقد أتيت على ذكر بعض من معالمه، في تقديمي لكتاب الأمة السادس والأربعين: «المستقبل للإسلام»، لكن الذي يتأمل دورات السقوط والنهوض، وتداول الأيام بين الناس، وقدرة الأمة المسلمة على النهوض، أكثر من مرة، بعد الظن أنه تُوُدِّع منها، يدرك تماماً مقومات النهوض، وسننه المستمدة والخالدة، التي يمتلكها هذا الدين.

وقد تكون المشكلة ،كل المشكلة اليوم، ليست بعملية إقصاء المسلمين عن دينهم، أو فصل دينهم عن حياتهم، وقد باءت تلك المحاولات -تاريخياً- جميعها بالفشل، وانقلب فيها السحر على الساحر، وليس ذلك فقط، وإنما تحولت تلك المحاولات، لتكون وسيلة تحريض، وعامل وعي، وأداة استفزاز وتحدي، واستشعار الخطر، الأمر الذي أدى إلى العودة للذات، والتشبث بها من الاقتلاع، والاحتماء بالشخصية التاريخية الحضارية..

ويبقى المطلوب: كيفية الإفادة من هذه العودة، حتى لا تبقى دفقات حماس وتوثب فقط...

وإنما المشكلة الخطيرة اليوم، هي في قطع النصوص الشرعية عن سياقها، وتفسيرها، وتوظيفها، من خلال مناخ التخلف، وحالات الهبوط.. فبدل أن تكون الآيات والأحاديث، عامل نهوض وفاعلية، تحولت لتصبح مسوغًا لحالة التخاذل، ولتوجد مشروعية للهبوط، وذلك بالتأويل الجاهل، والانتحال الباطل، والتحريف الغالي.. وبدل أن يكون الاجتهاد لإيجاد الحلول، وكيفية التعامل مع المشكلات، وتقديم برامج الحل الإسلامي، لقضايا وهموم الناس، أصبح سبيلاً للعثور على التبريرات، وإيجاد الذرائع، لتكريس الواقع الظالم، والدفاع عن مشروعيته.. وبدل أن يصبح هوانا تبعًا لما جاء به الإسلام، جَعَلْنَا ما جاء به الإسلام تبعًا لهوانا! والعياذ بالله! والرسول ﷺ، يقول: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»** (رواه الخطيب البغدادي في تاريخه، والبغوي في شرح السنة).

ذلك أن التدين الصحيح، هو التكيف مع مقتضيات الدين وأحكامه، وتقويم سلوك المجتمع بها، وليس تكييف نصوص الدين، لتوافق هوىٰ الناس، ورغبة الظلمة المتسلطين.

نعود إلى القول: بأن النبوة بشكل عام، والنبوة الخاتمة بشكل أخص، ما جاءت إلا لإنقاذ الناس، وإلحاق الرحمة بهم، في معاشهم ومعادهم، حتى لقد اعتبر الإسلام، نفع الناس، وتحقيق مصالحهم، وتفريج كربهم، وتقديم الخير والإحسان إليهم، هو المعيار لحب الله ورضاه: **«أحب العبادِ إلى الله تعالىٰ، أنفعُهُم لعِيَاله»** (رواه عبد الله في زوائد الزهد، عن الحسن مرسلاً، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع).. ولم يقتصر الرفق والنفع على

الخلق من الناس، وإنما تجاوز إلى استشعار المسؤولية عن الحيوان.. ولا يتسع المجال، لإيراد الأمثلة، وحسبنا أن نُذكِّر بحديث الرسول ﷺ: «...**في كُلِّ كَبِدٍ رَطبةٍ أجر**» (متفق عليه).

وجعل الرسول ﷺ الدين المعاملة، والدين النصيحة، والبر حسن الخلق، لذلك كان التدين عطاءاً مستمراً، وإيثاراً مستمراً، وإحساناً مستمراً، وعفواً مستمراً، وحبًّا مستمراً، ورحمةً دائمةً.. والمسلم الحق، هو إنسان الاحتساب، الذي يبتغي بعمله وجه الله وثوابه، ولا يربط عمله بجزاء الدنيا، ولا يحبط ويرتكس إذا لم يتحقق له الجزاء الدنيوي.. إنه إنسان الواجب، الذي لا يرى رسالته إلا في العطاء، وفي ميزانه: الأكرم هو الأتقى، والأتقى هو الأكرم.. الإنسان الحق، إنسان الإنتاج، لا إنسان الاستهلاك، يبذل ماله وروحه جهاداً في سبيل رفع الظلم، وتحرير الإنسان.

والمسلم الحق، هو الذي يلتصق بهموم الناس، لا يغادرها، ولاينفصل عنها، متأسيًا بالرسول القدوة ﷺ، الذي بعثه الله رسولاً من مجتمعه وقومه، حتى كان لا يتميز عنهم بطعام، أو لباس، أو مجلس، أو هيئة، ولا يترفع بمسكن، أو نفقة، نشأ فيهم، وبقي منهم، إذا جاءه السائلُ، لا يميزه من قومه، بل يسأل: أيكم محمد؟ وكانت وصاياه المستمرة: «**لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله**» (رواه البخاري عن عمر).. «**إن كنتم آنفًا، تفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا...**» (رواه النسائي وابن ماجه عن جابر).. «**هوِّن عليك، فإني لستُ بملِكٍ، إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قُرَيْشٍ، كانت تأكُلُ القَديد**» (رواه ابن ماجه والحاكم، عن أبي مسعود البدري).

وكان التسديد من السماء، لخطوات النبوة، ودورها الفاعل في تقويم المجتمع بشرع الله، مستمراً: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ (الكهف: ٢٨).

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٢).

وكان عليه الصلاة والسلام، دائم الانتصار والالتصاق بالفقراء والمساكين، يعتبرهم كيان المجتمع، وأدوات إنتاجه، ووسائل حمايته، وكان يقول عليه الصلاة والسلام: « ... **هل تُنْصَرون وتُرْزَقُون إلا بضعفائكم؟!** » (رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص).

إن الفقراء، عدة الإنتاج وسواعده ،في السِّلْم، وعدة الدفاع ورجاله، في الخوف والحرب، في الوقت الذي كان ﷺ فيه، يعتبر أن الانفصال عن الناس، والانغماس في الرفه والترف، طريق السقوط والانقراض، ويحذر من الكبر، الذي هو « بَطَر الحقِ، وغَمْط الناس » (رواه مسلم عن ابن مسعود).

وإن الفِسْقَ والبَطَرَ سببُ الدمار، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء: ١٦).

والصراع تاريخيًا كان -ولا يزال- بين (الملأ) المترف، المستأثر بكل شيء، الظالم، المتسلط، وبين جمهور الناس (القوم)، وإن النبوة كانت دائمًا في مواجهة مع (الملأ)، حتى حولت الصراع والتآكل والحقد، إلى حب وتعاون وتكافل.

والأمر لم يقتصر، في الإسلام، على إيقاظ الوازع الداخلي، وتربية الضمير، وتنمية الحس بالآخرين فقط، وإنما تجاوز إلى وضع التشريعات الملزمة، لتحقيق التكافل الاجتماعي، على كل الأصعدة، التربوية، والنفسية، والمادية، والسياسية... الخ، بل لقد جعل تحقيق التكافل الاجتماعي، أحد أركان الإسلام.. فالزكاة والصدقات، والنفقات الواجبة، وتحريم الفَضْل في ساعات الشدة، كما قال أبو سعيد الخدري: «حتى رأينا أنه لا حق لأحدنا في فضل» (رواه مسلم)، يدل على أن النبوة إنَّما بُعثت في الناس، وللناس.

ولا أدري ضمن إطار أي منطلق، أو أي مفهوم للتدين، يحق لدعاة الإسلام أن ينسحبوا من الساحة، ويغادروا هموم الناس، ولايواجهون (الملأ)، بالوسائل المتاحة والمشروعة، وهم يحاولون السير على قدم النبوة؟! ومن سيبقى محل دعوتهم، إذا افتقدوا (القوم)، أو جماهير الناس؟ وما قيمة ما يحملون من قيم ومبادئ عمليًا، إذا لم يحولوها إلى برامج وخطط، تنفع وتسهم بمعالجة مشكلات الناس، وتقويم سلوكهم بقيم الإسلام، وبذلك إنقاذهم ، وإلحاق الرحمة بهم ؟ وكيف إذا انسحبوا من المجتمع ،

ولم يتعرفوا إلى قضاياه ومشكلاته، يمكنهم أن يتعاملوا معه؟ وكيف يُصَدِّقُ الناسُ عمليًا، أن الإسلام هو الحل، ما لم نتقدم به، ونتمثله، ونقدم حلولاً لمشكلات الناس، في ضوئه؟

ومع شديد الأسف، فإن الكثير من المؤسسات والجمعيات والمنظمات الدعوية الإسلامية، لسبب أو لآخر، أصبحت خارج الواقع، وخارج الحاضر، وخارج هموم الناس ومشكلاتهم.. أصبحت تشكل أجسامًا منفصلة، وأهدافًا خاصة منفصلة عن أهداف الأمة العامة، حتى إنها تدعي التميز عن جسم الأمة، الأمر الذي سوف يوقعها في الشِرَاك المنصوبة لها، ويجعل منها طوائف منفصلة، ودوائر مغلقة، تعكف على خاصة نفسها، وتعجب بفكرها، ولا ترى إلا تراثها وتاريخها، مما يسهل عزلها عن ضمير الأمة، ومحاصرتها، وضربها، أو على الأقل إلغاءها.

لذلك نقول: إن محاولات إبعادها عن الأمة، وإخراجها من الساحة، ومحاصرتها بالتهم الباطلة، إنما هي لشل حركتها، وتسهيل ضربها، بعيداً، حتى لا يحس بإصاباتها جسم الأمة.

ولعل فلسفة الانسحاب من المجتمع، ومحاولة إيجاد المشروعية، لتولية الدبُر، لهذا الانسحاب من الدوائر الاجتماعية المتاحة، هو الأخطر اليوم، حيث بدأ بعض الدعاة يتوهم أنهم، إذا انخرطوا في هموم الناس، فسوف يقومون بوظائف الدولة، التي تتنكر للإسلام، نيابة عنها، مما يمكن أن يصبح إعانة لها، وتقوية لسلطانها، خاصة بعدما برزت صورة الدول،

والأنظمة الشمولية، التي تتدخل في كل شيء، وتحاول امتلاك كل شيء، وتأميم كل شيء، حتى التفكير بتأميم الإنسان، لصالح النظام، وتحويل الناس إلى موظفين، وأَكَلَة على مائدة السلطان.

وفي اعتقادي، أن ذلك كله، لا يعفي دعاة الإسلام، من حمل المسؤولية، والالتصاق بهموم الناس، بل أرى أنه كلما اشتد الحال، كلما ازدادت المسؤولية، وليس العكس.

أما محاولة محاصرة الدعاة الإسلاميين اليوم، بحجة أنه لا حاجة لمؤسساتهم ومنظماتهم، لأن المجتمع كله مسلم، فهي حجة متهافتة، متناقضة مع نصوص الكتاب والسنة، ويدفعها الواقع والممارسة.

إضافة إلى أنها يمكن أن تنسحب على المؤسسات والمنظمات الوطنية، والشعبية، والقومية، غير الإسلامية، وهذا ما لم يقل به أحد.

والعجيب الغريب في عالمنا الإسلامي، أو في بعضه على الأقل، أن منطق الدولة الشمولية، انحسر وتراجع في العالم كله، وأصبح كل شيء يخضع للمنطق الليبرالي، أو اقتصاد السوق، إن صح التعبير، المصطلح الذي بدأ يفسر الحالة الثقافية، والسياسية، والاقتصادية على سواء.

وأصبح المنطق الليبرالي، وسيلة لإباحة، وحرية كل شيء، وإخضاعه للمنافسة.. لكن في المجال الإسلامي فقط، دون سواه، ما يزال يتحكم فينا عقل الأنظمة الشمولية.

والمخرج - والله أعلم - هو المبادرة بالأعمال الصالحة، وتحويل الفكر إلى فعل، والشعار إلى شعيرة، والانتقال إلى مرحلة التفكير والتربية، من أجل التغيير، والعودة إلى التجديد، والاجتهاد في الميدان، وليس من وراء المكاتب وفوق المنابر، والعودة إلى الناس، محل الدعوة وميدانها، وتربتها الصالحة للغرس، وامتلاك القدرة على الخروج من الحصار بالوسائل المشروعة، بعيداً عن أي تشنج، أو تعصب، أو انفلات من الضوابط الشرعية، وتقديم الإنسان الأنموذج، الذي يثير الاقتداء بعلمه وعمله وسلوكه.

وبعد:

فالكتاب الذي نقدمه اليوم، لا شك أنه يعتبر إسهامة بارزة، لم تقتصر على فتح ملف هذه القضية الخطيرة، والاستشهاد لها من الكتاب والسنة، وسيرة خير القرون، واستدعائها إلى ساحة الاهتمام، بعد أن كادت تغيب عن فلسفة العمل الإسلامي، بميادينه المختلفة اليوم، تحت شتى الذرائع والمعاذير، وإنما استطاعت أن تخطو في الموضوع خطوات مقدورة، حيث لم يقتصر الباحث، جزاه الله خيراً، على تحديد الإصابات، وإنما حاول دراسة أسبابها المتعددة، كما حاول المساهمة بوضع المقترحات النافعة، والمعالم البارزة على الطريق الطويل.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

بين يدي البحث

لقد مضى على العاملين للإسلام في العصر الحديث، زمن غير قصير، وهم يتبنون الخطاب التعليمي للناس.. والخطاب التعليمي هذا، خطاب تجريدي، قائم على تحديث الناس، بأسس الإسلام العقيدية والتصورية، والتشريعية، وحلاله وحرامه، ومحاسنه، ووعوده للناس في الدنيا والآخرة، إن هم التزموا به... وفي الاقتصار على هذا الخطاب[1] -مع ضرورته- إغفال لطبيعة هذا الدين العملية.. فالإسلام دين يبدأ عمليًا مع الإنسان، ومن النقطة التي يجده فيها في إكسابه كل حقوقه التي أوجبها له الله، ومطالبته بكل واجباته التي فرضها عليه، وبحسب الإمكان: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨).

ومن هذا المنطلق، فالإنسان يترتب عليه -من ضمن ما يترتب عليه من الواجبات- ومنذ اللحظة، التي يلتزم فيها بتعاليم الدين الإسلامي، أن يتكافل مع المسلمين الآخرين، وأن يتعاون معهم، وأن يتبنى همومهم، ومشاكلهم، وأن يسعى معهم إلى حلها، قدر استطاعته.. وهذا التعاون، والتكافل، والتبني المتبادل، للمشاكل والهموم، هو الذي

---

(١) وهذا جانب يحتاج بدوره إلى تطوير وبلورة، وما يسع المرء إلا أن يرقب بارتياح وحماس، الجهود التي تبذل بهذا الصدد، من قِبَل بعض المعاهد والمنظمات، غير أن هذا الكتاب يستهدف أساسًا تنبيه المسلمين لهذا الجانب العملي، الذي ضَمُر في حياتهم بشكل ملحوظ، مما لا يعني بحال من الأحوال التضاد بين المدخلين، فبينهما تكامل ضروري، لا يمكن بدونه الاضطلاع بأعباء القومة المأمولة.

يفضي بالمؤمنين إلى حالة الجسد الواحد المتماسك القوي، التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: **«مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتراحُمِهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى»** (١).

وقد جعل الله من التكذيب بالدين، عدم تبني هموم ومشاكل الآخرين، ومساعدتهم، ولو بالكلمة الطيبة، وتوعَّد بالويل، من يمنع الماعون في حالة الاستطاعة، عمن يحتاجون إليه، فقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ (الماعون: ١-٧).

وطبيعة الإسلام هذه، هي التي جعلته يتقدم الأديان الأخرى، ويتبوأ من بينها المقامَ الأحمد، لأنه ليس مجردَ مجموعة اعتقادات وقناعات، وإنما هو عقيدة وعمل، ومنهج حياة متكامل، جاء ليحل مكان مناهج الحياة السائدة، ففعل ذلك.. ولكن بعد محاولات عزله، من واقع الحياة إلى واقع الأذهان، عادت البشرية لتقف من جديد على حافة الرَّدَىٰ.

إنه من سنة الله، ألا تعالج المشكلات الواقعة، إلا بحقائق تقع، تقابلها وتُغَيِّرها.

وإذا أراد العاملون للإسلام اليومَ إنقاذ البشرية بالإسلام، فعليهم أن ينطلقوا من إدارك عميق لطبيعة هذا الدين العملية، وذلك مقتضاه،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، حديث رقم ٦٠١١، ومسلم في كتاب البر، حديث رقم ٦٦، وحديث رقم ٦٧.

عدم الاقتصار على الخطاب التعليمي، بل قرنه بالعطاء العملي الواقعي، الذي يحض هذا الدين عليه أتباعه، وبوفرة من النصوص وافرة، سوف يأتي معنا منها طرف إن شاء الله، وهذا بُعْد القضية التعبدي.

ويتمثل هذا البعد، والتحرك به، بحيث يصبح خطاب العاملين من أجل الإسلام للناس، خطاباً عملياً، بالإضافة إلى كونه تعليمياً، في كونه ينطلق أيضاً، من التبني لهمومهم، وآلامهم وآمالهم، بالإسلام، وإن الخطاب، الذي ينبعث من هذه الأرضية، لهو الخطاب المستن بسنة رسول الله ﷺ، ومن سار على نهجه بإحسان، كما سوف يأتي بيانه بإذن الله... غير أنه من الواجب في هذا المقام، التذكير بأمرين:

١ـ أن المقصود بهذا الالتحام بالناس، وتبني همومهم، وآلامهم، وآمالهم، ليس هو خطب وُدِّهم، من أجل الارتقاء إلى سُدَّة الحُكْم على أكتافهم، ومن ثم التنكر لقضاياهم، لأن هذه سبيل الوصوليين، وإنما المقصود هو التقرب من الله، بنفع عياله، وهذا هو، الذي يميز العامل بالإسلام، عن غيره، لأنه لا ينتظر جزاءً ولا شُكُوراً من الناس، فمقصوده هو رب الناس... ومن ثَمَّ فهو لا يُتْبِعُ ما يُقَدِّمُه من خيرٍ منًّا ولا أذىً... وإن لم يُشْكَر من لَدُن الناس...

٢ـ أن المقصود بهذا الالتحام، ليس هو تسخير الناس، من أجل تثبيت نظام معين، مع عدم المبالاة بهؤلاء الناس، حيوا أم ماتوا، ربحوا أم خسروا، فهذه سبيل التجريديين، غير ذوي الفعالية في الواقع، الذين يعتبرون ما في أذهانهم، ذا أولوية على واقع الأمور، وإن كان ما في الأذهان مجانباً للصواب، وكان مجردَ قَنَاعات، أفرزتها عقول محددة، إثر دراسات وعمليات تفكير، فيها نقص وَتِرَّة.

إن المقصود بالالتحام بالناس، هو تعليمهم، أن خلاصهم في الإسلام، وبالإسلام، بشكل عملي، من خلال تقديم الحلول لمشاكلهم كلها، انطلاقًا من الإسلام، مع التركيز من قبل، ومن بعد، على أن أكبر مشكلة، يمكن أن يُمْنَىٰ بها الإنسان، هي الخسران الأكبر، يوم العرض على الله، ولا يمكن أن يتم ذلك، إلا باعتماد عملية تربوية شاملة، رابطة بالله تعالى.

وإن هذه السبيل، لتتضمن أُسُسًا برهانية على صحة الإسلام، وهيمنته على الدين كله، مع قوم عندهم بقايا بذور إيمانية، تحتاج، لأن تُسقىٰ، وتُرعى.. وهذا بُعد القضية العقيدي.

وبُعد آخر، لابد من الإشارة إلى أهميته، وهو البُعد الإصلاحي التدافعي، الذي يمنع من إفساد الأرض: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١).

فالتاريخ الإنساني في حقيقته، لا يعدو أن يكون مجموعةً من التصرفات البشرية، التي تتم ضمن إطار المشيئة الإلهية، بالإرادة الإنسانية.. وهناك المحيط الابتلائي، المتمثل في الأرض، وما عليها من زينة، وما يقع فيها من أقدار الله، بسطًا للرزق، أم تقديرًا له، وتذليلاً للأنواء، أم تصريفًا لها على أوجه العُسْر، امتحانًا وابتلاءً: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥).

هذا المحيط الابتلائي، وإن كان له تأثير على التاريخ، إلا أن الذي له تأثير أكبر، هو نمط مواجهة البشر، لهذه المظاهر، وتصرفهم تجاهها، إنَّ

الأمم التي لها حضور، ويَسْرِي في كيانها نُسْغُ الحياة، لهي الأمم، التي تغالب لصنع تاريخها، عوض أن يُصَنَّع لها، وتسعى -عوض الاستسلام والاستخذاء، والتطامُن أمام إرادات الآخرين- أن توجه مسار الحياة والأحياء، خضوعًا وامتثالاً لأمر الله، ومعانقة لشرعته ومِنْهَاجه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وإن جُلَّ ما أصاب أُمَّتنا، من الارتكاس والانحطاط، مرده بالأساس، إلى السلبية التي اتصفنا بها، من جرَّاء التحييد والتقليد، والجبر.

فالتحييد، قد وقع على أمتنا منذ أَعْصُرٍ مبكرة، بحيث أوقع فينا السيف، فذبح خيارَنا، وقصف مَنْسَكَنا بالمَنْجنيق، وعُولجت مشاكل، فكرية، وسياسية، وقبل ذلك، عقيدية، بالسِّنان عِوض أن تُعالَج بمنطق اللسان، فطُلِبَت السلامةُ في الصَّمت، وتُرِكَ الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، وأُسْلِم رجال السلطة -إلا من رحم ربك- لأهوائهم وغرائزهم، فازدادت الهُوةُ اتساعًا، إذ غاب مبدأ: «والله لو رأينا فيك اعْوِجَاجًا يا عُمَرُ لقوَّمْنَاه بحدِّ سيُوفنا».

وحتى في الجانب العلمي، اندرس خُلُق: «قل يا ابن أخي، ولا تحقر نفسك»، وتركز واقع: «صَه»، و«اخرس قاتلك الله»، فانطوى المسلمون

على أنفسهم، وأفرزت لتسميتهم كلمات مثل: «الدَّهْمَاء» و«الغَوْغَاء» و«السُّوقَة» و«الجَهَلَة» و«الرَّعَاع» وغيرها... فأُسلم العلماء أيضًا -إلا من رحم ربك- لأنفسهم، واستخذوا لهذا الواقع.. بل عَضَّدُوه بممارساتهم، فاصبحتَ تجد في مقدمة كتاب أحدهم مثلاً: «تآليف الشيخ الأكبر، والكِبريت الأحمر، الإمام، المجتهد، العارف بالله...»[1]، أو تجد: «قال الشيخ الإمام، العالم، العلامة، الحَبْر الفهَّامة، المحقق المدقق، الحجة، الحافظ، المجتهد، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم سيد المرسلين، جلال الدين، أوحد المجتهدين»[2]. فلا يبدأ القارئ القراءة، إلا وقد أصيب بالشلل العقلي.. ويدعم ذلك في غضون الكتاب بعبارات مثل: «وهذا لا يقوله مسلم»[3]، أو قد تجد مباشرة عبارة: «ولعن الله من يقول هذا، فما يقوله مسلم»[4].

واضمحلت الثقة المُمَكَّنة من النصيحة، التي جعلها الرسول الأعظم ﷺ، هي الدين في قوله: «الدين النصيحة»[5]، وحتى حين تقع

---

(١) من مقدمة كتاب: (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار)، لمحيي الدين بن عربي، ص١.

(٢) من مقدمة كتاب: الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، ص١١، وهذا لا ينقص من قيمة الكتاب على كل حال.

(٣) ابن حزم، المحلَّى، ٣/٢٥٤، حين مناقشة لأبي حنيفة رحمه الله ، في قوله بإجزاء قراءة من قرأ القرآن بغير العربية في الصلاة.

(٤) نفسه، ٣/١٥٨.

(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ٤٢، ومسلم في كتاب الإيمان أيضًا، حديث رقم ٩٥.

النصيحة، فإنها تُعَارض بالتجهيل، والتفسيق، والرمي بالزندقة، في أحيان كثيرة، فانزلقت الأمة، إلى غياهب التحييد، فالسلبية، التي أدت إلى التقليد، الذي أدى بدوره إلى الكسل العقلي، فالإبداعي، وهو كَسَلٌ وَجَدَ تُكَأَتَهُ، في عقيدة الجبر، التي شاعت في الأمة، فأدت إلى التواكل، فكأنما يصدق فينا قول الشاعر:

فلو كان سهمًا واحداً لاتقيته ولكنه سهم وثان وثالث

إن رَفْعَ هذا القَدَر من البلاء، لا يمكن أن يَتِمَّ، إلا بالممارسات الإيجابية، التي ينبغي أن يضطلع بالقيام بها جميعُ المسلمين، كلٌّ من زاويته، وبحسب قدرته، مما هو كفيل -إن شاء الله- بإعادة الثقة، وزرع الحياة في أوصال الأمة، وتفتيق الإبداع، في عقول أبنائها، كيما يجددوا كِيَانها، ويعيدوا بناء الحضارة، وصياغة التاريخ، على هدىً من الله، وامتثالٍ لأوامره.

فهذه أبعاد ثلاثة أساسية، تُؤَطِّر حركةَ الإنسان المسلم، في الواقع، بأوامر الله عز وجل، ورسوله ﷺ، الحاثَّة، علىٰ تبني هموم الناس، والتكافل، والتعاضد معهم، قصد اجتياز عقبات مشاكلهم، زُلْفىٰ إلىٰ الله، وبَرْهَنةً على صلاحية دينه، لكل مكان وزمان، ودَفْعًا للبلاء، وإقامةً لبنيان خير أمة علىٰ للناس، من جديد.

وسوف أتتبع - بعون الله - في معالجة هذا الموضوع، الخطوات الآتية:

* **الفصل الأول** : نصوص من كتاب الله في تبني هموم الناس.
* **الفصل الثاني**: نصوص من سنة رسول الله ﷺ، في تبني هموم الناس.
* **الفصل الثالث** : تبني صالحي الأمة لهموم الناس:
- المبحث الأول : عمل الصحابة (رضوان الله عليهم).
- المبحث الثاني : عمل التابعين (رحمهم الله).
- المبحث الثالث : سيرة السلف الصالح (رحمهم الله).
- المبحث الرابع: سيرة أهل الدعوة والجهاد في العصر الحديث (رحمهم الله)..
* **الفصل الرابع** : من أسباب انحسار خُلُق تبني هموم الناس:

أولاً : السبب العقيدي.

ثانياً : السبب التربوي.

ثالثاً : السبب التصوري.

رابعاً : السبب الفقهي.

خامساً : السبب الواقعي:

١ ـ الاستبداد.

٢ ـ الفُرْقَة.

* **الخاتمة.**

ولا أود – في هذا الموضع – أن يفوتني شكر جميع إخواني الذين أغنوا هذا الكتاب بملاحظاتهم، فجزاهم الله خيراً، والله أسأل –ابتداءً وختامًا– الإخلاصَ، والتوفيق، والسداد.

الفصـــل الأول

نصوص من كتاب الله في تبني همومَ الناس

أوجب كـتـابُ الله في آيات كـثـيـرة منه، على القـادرين في كل المجالات، إعانة غير القادرين فيها، وهو الصنف من الفُرُوض الذي اصطلح علماء الأصول على تسميته بـ: «فروض الكفايات»، وعرَّفوها بأنها: «موجهة إلى الجميع، لكن إذا قام بها بعضهم سقطت عن الباقين»[١].

وفي تسمية الأصوليين -خصوصًا الأوائل[٢]- لها، بالفروض الكفائية، إيحاء، بأن القيام بها، من لَدُن القادرين، ينبغي أن يكون كافيًا للأمة، وإلا فإنها لا تسقط، ويبقى الإثم عالقًا بعموم الأمة، قال الشافعي في الرسالة: «وهكذا كل ما كان الفرض فيه، مقصوداً به قصد الكفاية، فيما ينوب، فإذا قام به من المسلمين، من فيه الكفاية، خرج مَنْ تَخَلَّفَ عنه، من المأثَم، ولو ضَيَّعُوه معًا، خِفْتُ، أن لا يخرج واحد منهم، مطيق فيه، عن المأثم، بل لا أشك -إن شاء الله- لقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (التوبة:٣٩)، قال: فما معناه؟ قلتُ: الدِّلالة فيها،

---

(١) الشاطبي: الموافقات ١/١٧٦.

(٢) قلتُ: (الأوائل)، لأنهم واضعو الإصطلاحات، فهم أعرف الناس بمعانيها، فنحن نجد كثيراً من الحدود عند متأخري الأصوليين، قد غاب لُبُّها، وبقي رسمُها، يتردد في مصنفاتهم، متحجراً، حتى على مستوى الأمثلة التي فقدت كل فحواها.

أن تخلفهم عن النفير كافة، لا يسعهم، ونفير بعضهم، إذا كانت في نفيره كفاية، يخرج من تَخَلَّف من المأثم، إن شاء الله»[1].

إلا أن غير القادرين، لا يبقون -بخصوص الفروض الكفائية- بدون مسؤولية، فالشرع يُرَتِّب عليهم مسؤولية السعي، لإقامة القادرين. قال تعالىٰ: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (الحاقة: ٣٠-٣٤). قال ابن الجوزي، في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾: «لا يطعمه، ولا يامر بإطعامه»[2].

فالعقابُ، لم يكن فقط لأولئك، الذين يمنعون الماعون، وهم قادرون عليه، ولكن عَمَّ أيضًا، أولئك الذين لم يُنْهِضُوا القادرين، ويَحُثُّوهم على بذله.. وعليه، وجب فَهْم قول الشافعي: «لا يخرج واحد منهم، مطيق فيه، من المأثم»[3] في ضوء كون الإطاقة، إطاقة الحض، والحث أيضًا، لا إطاقة الفعل، والإنجاز فقط.

قال الشاطبي: «القيام بهذا الفرض -يقصد الفرض الكفائي- قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة، وذلك من كان أهلاً لها، والباقون، وإن لم يقدروا عليها، قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادراً على الولاية، فهو مطلوب

(١) الشافعي، الرسالة، ص٣٦٦-٣٦٧.
(٢) زاد المسير في علم التفسير، ٨/٣٥٢.
(٣) الشافعي، الرسالة، ص٣٦٦.

بإقامتها، ومن لا يقدر عليها، مطلوب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القادر، وإجباره على القيام بها.. فالقادر إذن، مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر، مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر، إلا بالإقامة، من باب، ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب»[1].

وإن اللعنةَ، ما لَحِقَت ببني إسرائيل، على لسان أنبيائهم، إلا لأنهم. كان لا يتناهَون عن منكر فعلوه، قال عز وجل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨-٧٩).

وقد تقدم، كيف جعل الله سبحانه، عدم الحض على طعام المسكين، تكذيبًا بالدين.. وأي منكر إذن، أكبر من التكذيب بالدين؟ قال رسول الله ﷺ: **«لمّا وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماؤهم، فلم ينتهوا، فجالسوهم، وآكلوهم، وشاربوهم، فضرب الله على قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم، على لسان داود، وعيسى ابن مريم»**، ثم جلس وكان متكئًا، فقال: **«لا والذي نفسي بيده، حتى تأْطِرُوهم على الحقِّ أطْرًا»**[2].

ولَكَم تشَبَّث المتشبثون بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ١/١٧٨-١٧٩.

(٢) أبو داود في كتاب الملاحم، حديث رقم ٤٣٣٦، والترمذي في كتاب التفسير، السورة ٥، حديث ٦و٧.

﴿أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة:١٠٥)، معتقدين، أن ههنا رخصة، للقعود عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إذ ظاهر الآية، يوحي بذلك، قال القرطبي: «وظاهر هذه الآية يدل على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ليس القيام به بواجب، إذا استقام الإنسان، وأنه لا يُؤَاخَذُ أحدٌ، بذنب غيره، لولا ما ورد من تفسيرها في السنة، وأقاويل الصحابة والتابعين...»[1].

وقد تنبه الصديق أبو بكر رضي الله عنه، إلى هذا الإشكال، ففي سنن الترمذي، عن قيس، قال: «خطبنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: «إنكم تقرأون هذه الآية، وتتأولونها على غير تأويلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة:١٠٥)، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إن النَّاسَ إذا رأَوا الظالمَ، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يَعُمَّهم الله بعذاب من عنده**» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[2].

وقد أعجبني تعليق شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، على هذه الآية، حين قال: «إن المؤمن، عليه أن يتقي الله في عِبَادِه، وليس عليه هُداهم، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل**

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٦/٢٢١.

(٢) سنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة ٥، حديث ١٧.

إذا اهتديتم ﴾، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات، لم يضره ضلال الضالين»[1].

هذا وإن للإمام عبد الله بن المبارك، رحمه الله، قولاً جليلاً في تفسير هذه الآية، حيث قال: ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ خطاب لجميع المؤمنين، أي: عليكم أهل دينكم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ (النساء: ٢٩)[2] قال القرطبي شارحًا قول ابن المبارك: «فكأنه قال: ليأمر بعضُكم بعضًا، ولْيَنْهَ بعضُكم بعضًا، فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا يضركم ضلال المشركين والمنافقين، وأهل الكتاب، وهذا لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجري مع المسلمين من أهل العصيان. وروي هذا المعنى عن سعيد بن جُبير...»[3].

وقال مجاهد في سبب نزول هذه الآية: «نزلت في أهل الكتاب»[4]. وقال القرطبي: «والمعني: لا يضركم كُفْرُ أهل الكتاب، إذا أدَّوا الجِزْية»[5].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٢٧/٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٢٢/٦.

(٣) نفسه، ٢٢٢/٦.

(٤) نفسه، ٢٢٢/٦.

(٥) نفسه ، ٢٢٢/٦.

نستخلص من جميع ما مر، أن تعامل المسلمين في العصور المتأخرة، مع واقعهم، كان عاريًا من التمثل للأبعاد الحقيقية، والمقاصد السُّنية بهذا الخصوص، والتي يشتمل عليها كتاب الله تعالى، وتَحُثُّ عليها سُنَّةُ نبيه ﷺ، فلا غَرْوَ أن أصبح واقعُنا على ما أصبح عليه، من تَرَدٍّ وتَشَتُّت، وضحالة... لأن ههنا آليات برُمَّتها، من آليات حفظ كيان الأمة، قد سقطت، وانعدم انفعال المسلمين لها وبها، وما شيء يُحْفَظ، إلا بما هيأه صانعُه، لأنْ يُحْفَظ به، وأمتنا، لا يمكن أن تُحْفَظ، إلا بهذه الطرائق، والآليات، والتوجيهات، التي أراد الباري لها أن تؤديَ وظيفة الحفظ، وهو العليم الحكيم.

نصوص أخرى من كتاب الله والكلام عنها :

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يُحَرِّضُ الله عِبادَه المؤمنين، على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين، من الرجال والنساء والصبيان بمكة، المُتبرِّمين بالمُقام بها»[(١)]. ومعلوم، أن العِبرة، إنما تكون بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، قال ابن عَطية: «والآية تتناول المؤمنين، والأسرى، وحواضر الشرك، إلى يوم القيامة»[(٢)].. ولابن العربي

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٣١٤.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز، ٤/١٧٦.

المعافري في تفسير هذه الآية، كلام نفيس، ينطلق فيه من واضح رؤية، وعميق إدراك، لخصائص هذا الدين ومقاصده، حيث يقول: «أوجب الله سبحانه في هذه الآية القتال، لاستنقاذ الأسرى من يد العدو، مع ما في القتال من تلف النفس، فكان بذل المال في فدائهم أوجب، لكونه دون النفس، وأهون منها... وقد قال مالك: على الناس أن يفدوا الأسارىٰ، بجميع أموالهم... -إلى أن قال-: مسألة: فإن امتنع من عنده مال من ذلك؟! قال علماؤنا: يقاتله إن كان قادراً على قتاله، وهو قول مالك»[1].

وهذا كلام، غاية في الجلاء والوضوح، في وجوب تَبَنِّي هموم المستضعفين من الأمة، وقد استنبط الإمام مالك -وهو من مجتهدي الأمة- فيه من الآية قيد التفسير، أن براءة الذمة بخصوص المستضعفين، معقودة بالنصر بالبدن، إن كان العدد يحتمل، وإلا فلا سبيل إلا ببذل جميع الأموال.. وإن واقعنا ليشهد، أن هذا من العلم المندرس، لأنه وإن كان في الكتب، فهو غائب في أخلاقنا وتصرفاتنا، مما يستوجب إحياء هذه العلوم والفهوم.

ويقول سبحانه: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ (النساء: ٨٥).

---

(١) ابن العربي، أحكام القرآن، ١/٤٥٩-٤٦٠.

وقد جعل الإمام البخاري هذه الآية، عنوانًا لباب من أبواب كتاب الأدب، في جامعه الصحيح، ثم قال: «حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن يزيد، عن أبي بُردة، عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ، أنه كان إذا أتاه السائل، أو صاحب الحاجة، قال: **«اشفعوا فلتؤجروا، وليقض الله على لسان رسوله ما شاء»**[1].

وأخرج ابن سعد في (الطبقات) قال: قال الحسين بن علي رضي الله عنهما: «سألتُ أبي عن دخول النبي ﷺ، فقال: كان دخوله لنفسه، مأذونًا له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله، جَزَّأ دخولَه ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزَّأ جُزْأَه، بينه وبين الناس، فيسرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئًا، وكان من سيرته في جزء الأمة، إيثار أهل الفضل، على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم، والأمة، من مسالته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: **«ليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه، ثبَّت اللهُ قدميه يوم القيامة...»**[2].

وقال أيضًا في وصفه لدخول رسول الله ﷺ، وتعامله مع أصحابه،

---

(١) البخاري مع الفتح، ١٠/٤٥١.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكُبرى، ١/٤٢٣.

رضي الله عنهم: «أفضلهم عنده، أعَمُّهم نصيحةً.. وأعظمهم عنده منزلةً، أحسنهم مؤاساة ومؤازرة»[1].

فانظر كيف تفاضَل عنده ﷺ أصحابُه، بحسب نفعهم للناس.. وواجب امتثال أمر الله وأمر رسوله ﷺ بالشفاعة الحسنة، والتعرض لوعد الله بالأجر، يقتضي دراسة الواقع، الذي يراد فيه تنزيل هذا الأمر، فالآية والحديث، فيهما تأصيل لخُلُق، وهو الشفاعة الحسنة، وتبقى طرائق تنزيله على الواقع وتصريفه، وتثبيته فيه، على مسؤولية المسلمين، في كل زمان ومكان، ليفترعوا أحسنها، وأكثرها ملاءمة لظروفهم.

وإن واقعنا اليوم، أقل ما يمكن أن يقال فيه : إنه يختلف كثيراً عن الواقع النبوي، وعن الواقع في العصور التي تلت، إلى عهد قريب، حيث كانت الشفاعة، تتم عبر العلماء، والوجهاء، والأعيان، عن طريق المثول، أمام الخليفة، أو السلطان، أو الوالي، قصد أن يقضي حاجات المحتاجين، ويسد خلتهم –وسوف تأتي معنا أمثلة، عن هذا ، إن شاء الله - أو يُطلق سراح بعض المعتقلين، ولكن هذه القناة وحدها أصبحت غير كافية، فهي بالإضافة إلى كونها، لا تضبط حركة استجابة المسؤولين، لمطالب الذين يشفعون، وتتركها رهينة بأمزجتهم، وإراداتهم الخاصة، مما يجلعها تتسم بالاضطراب، وتكتسي –إن حصلت– سِربال الإنعام، والتَّفَضُّل، مما ليس دائمًا صحيحًا، بالإضافة إلى هذا، فإن الشفاعة بهذا النمط وحده، لاتلائم مقتضيات المجتمع المتماثل إلى التمدن ـ حال مجتمعاتنا ـ التي تفرض، استعمال قنوات وآليات أخرى، لامتثال الأمر بالشفاعة الحسنة، الذي جاء في الكتاب والسنة.

---

(١) نفسه، ١/٤٢٤.

فالناس في العصر الحديث، أصبحوا يعيشون في مدن يتكاثف فيها السكان، ولا يجمعهم فيها، إلا أسباب العيش، وعلى مَضَضٍ كبير، وقد تمت محاولات جاهدة، وتتم، لجمعهم في إطارات تنظمهم، وأنشئت لهذا السبب، قوانين تنظم إحداث الجمعيات، والأحزاب، والمؤسسات، التي تسهم في تأطير المواطنين، كما تم تقنين طرق إجراء الانتخابات، لاختيار مندوبين عن الشعب، يمثلونه ويتكلمون باسمه (يشفعون له شفاعة حسنة) في المحافل المخصصة لذلك، كما ضبطت بشكل مجمل، لا يزال فيه اضطراب كبير، آليات للتعريف بالمفترض فيهم، أن يكونوا أكْفياء لهذا الشأن.

غير أن كل هذا، وفي غياب الوعي، المُمَكِّن للتعاطي معه إيجابيًا، وتنظيمه بحسب ما يلائم أرضيتنا القيمية، وفضاءنا الحضاري، وخلفيتنا التاريخية، وبُنيتنا الاجتماعية بمختلف أبعادها، يبقى غير قادر، على تأطير واقعنا، بشكل كاف، وفعال، مما يستلزم اجتهادات متجددة، في هذا الاتجاه، شرعيًا، وتنظيميًا، وتربويًا، وتعبويًا، للوصول إلى المقصد، من إحداث كل هذه القنوات والآليات، والذي هو تفريج هموم الناس، بعد تبنيها بشكل مُمَنْهج، مسترشد بالشرع الحنيف، من أجل الفوز بالنصيب من الشفاعة الحسنة، الذي وعد به اللهُ ورسولُه ﷺ.

هذا وقد بيَّن القرآن الكريم، أن الأنبياء، كان من مهامهم الأساسية [illegible]

نبي الله شعيب، يتبنَّىٰ هموم المستضعفين من قومه، فيخاطب في شانهم المستكبرين، يقول تعالى حكاية عنه: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٧-١٨٣).

وهذا نبي الله يوسف، يتبنَّى مشاكل وهموم الناس، في السنين العِجاف، ويتطوع لتحمل عبءَ توزيع المواد الغذائية، ليقوم بذلك بعدل، فلا يُظلم أحدٌ، يقول تعالى حكاية عنه: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وسأل العمل، لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله، أن يجعله على خزائن الأرض، التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين، التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط، والأصلح، والأرشد...»(١).

وهذان نبيا الله موسى، وهارون، يطالبان فرعون، أول ما خاطباه، بإطلاق سراح شَعب بني إسرائيل، وعدم تعذيبهم، والكف عن استضعافهم، واستغلالهم، فقال تعالى حكاية عنهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ (طه: ٤٧).

نستخلص من هذه الآيات الكريمات، أن هذا الدين العظيم، قد غرس في المؤمنين به، التكافل، والتراحم، والتعاون، وبين ذلك في سلوك

() تفسير ابن كثير، ٢/٤٨٢.

من خُلُقوا، ليُتَأَسَّى، ويُقتدى بهم -الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- وجعل عدم الانخراط في هذه الأوامر الإلهية، تكذيبًا بالدين.. فهذا الدين «ليس أجزاءً وتفاريق موزعة منفصلة، يؤدي منها الإنسان، ما يشاء، ويدع منها ما يشاء... إنما هو منهج متكامل، تتعاون عباداته، وشعائره، وتكاليفه الفردية، والاجتماعية، حيث تنتهي كلها إلى غاية، تعود كلها على البشر... غاية تتطهر معها القلوب، وتصلح الحياة، ويتعاون الناس، ويتكافلون في الخير، والصلاح، والنماء... وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد.

ولقد يقول الإنسان بلسانه: إنه مسلم، وإنه مصدق بهذا الدين، وقضاياه، وقد يصلي، وقد يؤدي شعائر غير الصلاة، ولكن حقيقة الإيمان، وحقيقة التصديق بالدين، تَظَلُّ بعيدة عنه، ويَظَلُّ بعيداً عنها، لأن لهذه الحقيقة علامات، تدل على وجودها، وتحقيقها.. وما لم توجد هذه العلامات، فلا إيمان كامل، ولا تصديق، مهما قال اللسان، ومهما تعبَّد الإنسان.

إن حقيقة الإيمان، حين تستقر في القلب، تتحرك من فورها، لكي تحقق ذاتها في عمل صالح... إن حقيقة التصديق بالدين، ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحول في القلب، يدفعه إلى الخير، والبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية، والله لا يريد من الناس كلمات، إنما يريد منهم معها أعمالاً، تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار»().

() سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٩٨٤-٣٩٨٥.

الفصـــل الثانـي
نصوص من سنة رسول الله ﷺ
في تَبَـــنِّي همـــوم الـنـــاس

إن الأحـــاديث، التي تحث المسلمين، على تبني هـمــوم الناس، ومشـاكلهم، وترغِّب في ذلك، أكـثـر من أن تُحصى، في هذا المقام.. والمتعامل معها، يلاحظ، أن في الإسلام نظامًا كاملاً، لإقامة العلاقات الاجتماعية، بين الناس، على وجه يُبْعِدُ كلَّ الأدواء، التي تَنْخر كِيَان المجتمعات، عن المجتمع الإسلامي... وهو نظام حري، بأن يُبحث فيه، وتُوَضَّح معالمه، في دراسة جادة موضوعية، ومستقلة.. وفيما يلي طرف من هذه الأحاديث الشريفة:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمُه، ولا يُسْلِمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كُرْبَة، فرَّج اللهُ عنه بها كُربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن سَتَر مُسلمًا، سَتَره الله يوم القيامة**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَن نَفَّس عن مُسلِم كُرْبة من كُرَب الدنيا، نَفَّس الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم**

---

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم، حديث رقم ٢٤٤٢، ومسلم في كتاب البر والصلة، حديث رقم ٥٨.

القيامة، ومَن يَسَّرَ على مُعْسِرٍ في الدنيا، يَسَّر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه»(١).

وعن ابن عُمَر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: **«لأنْ أمشي مع أخ في حاجة، أحبّ إليَّ مِن أن أعتكف في هذا المسجد** -يعني مسجد المدينة- **شهراً»**(٢).

وعن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: **«ما مِن مسلمٍ يَخذُلُ مسلماً في موضع تُنْتَهكُ فيه حُرْمَتُه، ويُنْتَقَص فيه من عِرْضِه، إلا خَذَلَه الله في مَوطن يُحِبُّ فيه نُصْرَتَه، وما مِن مُسلمٍ يَنْصُرُ مُسلماً في مَوضِعٍ يُنْتَقَصُ فيه من عِرْضِه، ويُنْتَهَك فيه من حُرْمَتِه، إلا نَصَره الله في موطن يحب فيه نصرته»**(٣).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بخصالٍ من الخير: أوصاني أن لا أنظرَ إلى مَن هو فوقي، وأن أنظرَ إلى مَن هو دوني.. وأوصاني بِحُبِّ المساكين، والدُّنو منهم.. وأوصاني أن أَصِلَ رَحِمي، وإن أَدْبَرَتْ.. وأوصاني أن لا أخافَ في الله لَوْمَةَ لائم.. وأوصاني أن أقولَ الحقَّ، وإن كان مُرًّا.. وأوصاني أن أُكْثِرَ من: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه كَنْزٌ من كنوز الجنة»(٤).

---

(١) رواه أبو داود في سننه، حديث رقم ٤٩٤٦، والترمذي في سننه، حديث رقم ١٤٢٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٤٥٣/١٢، بإسناد حسن، وذكره الشيخ ناصر الدين [illegible]

(٣) رواه أبو داود في سننه، في كتاب الأدب، حديث رقم ٤٨٨٤.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه، ١٩٤/٢، حديث رقم ٤٤٩، وأحمد في المسند، ١٥٩/٥.. وتوصية رسول الله ﷺ لأبي ذر، بالدنو من المساكين، ليس فقط من أجل التربيت عليهم، وإنما أيضاً من أجل معرفة همومهم وتبنيها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله**»، وأحسَبُه قال: «**وكالقائمِ لا يَفْتُر، وكالصائم لا يُفْطِر**»[1].

وعن البَراء بن عَازِب رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسَبْعٍ، ونَهَانا عن سَبْعٍ، فذكر عيادةَ المريض، واتِّبَاعَ الجنائز، وتَشْميت العاطس، وردَّ السلام، ونصر المظلوم، وإجابة الدَّاعي، وإبرار القَسَم»[2].

وقد شاركَ رسولُ الله ﷺ في حِلْف الفضول، وسِنُّه يومها عشرون سنة، وهو حِلْف مقتضاه نصر المظلوم، والتآسي في المعاش، قال ابن سعد في طبقاته: «كان الفجار في شوال، وهذا الحِلف في ذي القعدة، وكان أشرف حلف، كان قطُّ، وأول من دعا إليه، الزُّبير بن عبد المطلب، فاجتمعت بنو هاشم، وزُهْرة، وتَيْم، في دار عبد الله بن جدعان، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله، لنكونن مع المظلوم، حتى يؤدَّىٰ إليه حقُّهُ، ما بَلَّ بحرٌ صُوفَةً، وفي التآسي في المعاش، فَسَمَّت قريش ذلك الحِلْف: حِلف الفضول.

قال: وأخبرنا محمد بن عُمر قال: فحدثني محمد بن عبد الله عن الزُّهْري، عن طلحة بن عبد الله بن عوف، عن عبد الرحمن بن أزهر، عن جُبير بن مُطْعَم، قال: قال رسول الله: **ما أُحِبُّ أن لي بحِلْفٍ، حَضَرْتُهُ**

---

(١) رواه البخاري، في كتاب الأدب، باب الساعي على المسكين، حديث رقم ٦٠٠٧، ومسلم في كتاب الزهد، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين، حديث رقم ٤١.

(٢) رواه البخاري في كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، حديث رقم ٢٤٤٥، ومسلم في كتاب السلام، حديث رقم ٥، وحديث رقم ٦.

بدار ابن جدعان، حُمْر النَّعَم، وأنّي أغدر به، هاشم وزهرة وتيم، تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم، ما بلَّ بحرٌ صُوفةً، ولو دُعيتُ به، في الإسلام، لأجبتُ، وهو حِلفُ الفضول»[1].

وعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب يقول: **«مَن ماتَ وترك مالاً فلأهله، ومن تَرَكَ دَيْنًا، أو ضَيَاعًا، فإليَّ وعَليَّ»**[2].

وقد كان ﷺ أسرعَ الناس مبادرةً، لتَقَصّي أسباب الخطر، ومصادره، ليدفعه عنهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ، أشجعَ الناس، وأحسنَ الناس، وأجودَ الناس، قال: فَزِعَ أهل المدينة ليلةً، فانطلق الناسُ قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ، وقد سبقهم، وهو يقول: **«لن تُراعوا»** وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ[3]، في عُنُقه السيف، قال: فجعل يقول للناس: **«لن تُراعوا»** وقال: **«وجدناه بحراً»** (يعني الفرس)[4].

وعن أبي موسىٰ الأشعري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضُهُ بعضًا، وشَبَّك بين أصابعه»**[5].

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/١٢٨-١٢٩.

(٢) [illegible]

(٣) لا سَرج عليها.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/٣٧٣.

(٥) رواه البخاري في كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، حديث رقم ٢٤٤٦.

وقد ورد في رواية الكُشْمِيهَنِي: «**يَشُدُّ بعضهم بعضًا**» بصيغة الجمع[١]، وهو أدلُّ على التفاعل.

قال ابن حجر العَسْقَلاني في شرح هذا الحديث: «نصرُ المظلومِ فَرْضٌ على الكفاية، وهو عامٌّ في المظلومين، وكذلك في الناصرين، بناء على أن فرض الكفاية، مُخاطَبٌ به الجميع، وهو الراجح...»[٢].

وقد قِيل: إن فقه الإمام البُخاري في تراجمه، وقيل: ذلك بحق، ومن الدلالات عليه، أنه عقد في جامعه الصحيح، بابًا مستقلاً، لبيان وجوب الانتصار من الظالم، ضمن كتاب المظالم، فقال رحمه الله: «باب الانتصار من الظالم، لقوله جل ذكره: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٨) .. ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (الشورى: ٣٩)»[٣].

وقد أشرف رسول الله ﷺ على تثبيت هذا الخُلُق في أمته، شروعًا بأزواجه، أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن، فكان ﷺ ينصر المظلومة منهن، ويتهلَّل وجهُه الشريف، إذا انتصرت وانتصفت لنفسها بحق، وما ذاك إلا لفرحه ﷺ، بإقامة أمر الله، الذي هو وجوب الانتصار من البَغْي، والظلم، بين المسلمين، بدءًا من بيوته الشريفة ﷺ، فقد روى النَّسائي، وابن ماجه، بإسناد حسن، من طريق التَّيْمي، عن عُروة، عن عائشة،

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٥/٩٩.

(٢) نفسه، ٥/٩٩.

(٣) نفسه، ٥/٩٩.

رضي الله عنها، قالت: «دخلتُ على زينب بنت جَحْش، فسبتني، فردَعَها النبيُ ﷺ فأبت، فقال لي: «سُبِّيها»، فسببتها، حَتَّى جَفَّ ريقُها في فمها، فرأيتُ وجهَهُ يتهلل»[١].

إن أبسط تأمل، في واقعنا المعاصر، يوقفنا على كون هذه المعاني، قد غابت بشكل كبير، من حياة المسلمين، فمَرَجَ أمرُهم، وشاع البَغْيُ والظلم بينهم، وقُبِل ذلك بدعوى السماحة، ودعوى الواقعية، وحَقْن الدماء، وصَوْن الأعْراض، والأموال، فأُريق من الدماء، وهُتِك من الأعراض، وضُيِّع من الأموال (بشكل أو بآخر)، أكثر بكثير، مما كان سوف يُقدَّم في سبيل الله من ذلك، قَصْد تنقية المجتمع المسلم، وحفظه من الاضمحلال والتشتت...

وقد جاء أسامة بن زيد -الحِبّ ابن الحِبّ- مرة إلى رسول الله ﷺ، مُوفَداً من وجهاء المسلمين، ليكلمه في شأن إحدى الشريفات، من بني مَخْزُوم، كانت قد سرقت، وهي فاطمة المخزومية، ليُسْقط عنها الحدَّ، إكرامًا لقومها، وتألُّفًا لهم، انطلاقًا من مراعاة الواقع، وعدم إغضاب عُصْبَتِها، بل تقريبهم... فغضب رسول الله ﷺ، حتى احْمَرَّ وجهُه، ثم قال: «**أتَشْفع في حَدٍّ من حدود الله؟! إنما أهلك من كان قبلكم، أنهم**

(١) رواه أحمد في مسنده، ٩٣/٦، والنسائي في السنن الكبرى، ٢٩٠/٥، في كتاب عشرة النساء، باب الانتصار، حديث رقم ٨٩١٤، وكذا ابن ماجه في سننه، في كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، حديث رقم ١٩٨١، وقال صاحب مجمع الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، والحديث في صحيح البخاري في كتاب الهبة، باب من أهدى إلى صاحبه، وتحرى بعض نسائه دون بعض، حديث رقم ٢٥٨١، إلا أنه بغير هذا اللفظ.

كانوا، إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد.. وأيم الله، لو أن فاطمةَ بنت محمد سرقت، لقطعتُ يدَها»[1].

فالسارق، ظالم للمجتمع، وجب أن يُنْتَصَر له منه، والزاني ظالم للمجتمع، وجب أن يُنتَصر له منه، والمُرتشي والباغي كذلك، وقد أُثر عن الإمام مالك رحمه الله، أن وجهه، كان يتهلل، عندما يُقام حد من حدود الله [2]. وما أرى ذلك، إلا لأنها حدود الله تُقام، فتَحْتَوِشُ الناس، وتحفظ أمنهم، ومجتمعاتهم، من الضياع والتفسخ، فهي -بالإضافة إلى الأخلاق المؤصلة- ضمان أمنهم، وحماية كِيَانهم، فإذا سقطت، أوشك أن تسقط المجتمعات، في حَمْأة الرذيلة، وأدْغَال قانون الغَاب[3].. ولئن تهلَّلَ وجه الإمام مالك رحمه الله، كما تهلَّلَ وجه رسول الله ﷺ من قَبْله، حين الانتصار من الظالم، سواء أكان ظالمًا لفرد من المسلمين، أو لجماعة المسلمين، فما ذاك إلا لأن هذا الانتصار، وهذا الانتصاف، هو عين حفظ كِيان الأمة، من الاضمحلال والتَّمَزُّع.

---

(١) (وحاشاها)، والحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣٤٧٥، ومسلم في كتاب الحدود، حديث رقم ٨٠٩.

(٢) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ٩٣/٢.

(٣) رغم أن القياس مع الفارق، فدول الشمال اليوم تراجع إلغاءها لعقوبة الإعدام، وأمريكا بصدد مراجعة قوانينها في هذا الموضوع، وقد تقدم رئيسها في صيف سنة ١٩٩٤ (٢٣-٠٨-١٩٩٤)، بمشروع قانون لمكافحة الإجرام، أمام الكونجرس، وقد قبل هذا المشروع.

إن التَّبَنِّي الحقيقي الصادق لهموم الناس، يبدأ من الحِرْصِ على إقامة حدود الله، لحماية أمن أمتهم، وتماسك بنيانها، ويبدأ قبل ذلك من الحِرص على إشاعة العدل، وروح التكافل بينهم، عبادةً لله، ودعوةً إليه، بالبرهنة عمليًا على امتلاك دينه للقدرة والصلاحية، لأن يشيع رحمة الله على الناس، في الدنيا والآخرة، في كل زمان، وفي كل مكان، وتدافعاً مع أهل الباطل والبغي، لحفظ وتجديد بُنيان خير أمة أُخرجت للناس: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

إن جميع الأحاديث التي مرت معنا في هذا الفصل، أحاديث مباشرة، حثَّ فيها رسول الله ﷺ أمته، على تبنِّيٍ همومِ بعضِ أعضائها، همومَ بعضهم الباقي، وإلا فأحاديثه ﷺ، في تحريم الغش والاحتكار، وتلقي الركبان، وبيع الحاضر للبادي، والرُّشوة، وكذا أحاديثه ﷺ في الأمر بالقِسْط والعَدل، والإصلاح بين الناس، وإيجاب التكافل، والأمر بالزكاة، والصدقة، وكذا سلوكه العملي ﷺ، أمور كلها تصب في هذا المصب، ورُبَّ قائل يقول: بل كل سيرته، وكلُّ أحاديثه ﷺ تصب في هذا المَصَبٌ، وهذا حق وصدق، غير أنه، لا يمكن حصر كل ذلك، في مثل هذا المقام، ويكفي من القِلادة ما أحاط بالعُنُق.

الفصل الثالث
تبنِّي صالحي الأمة لهموم الناس

لقد انفعلت نفوس الدعاة والمجاهدين، والمؤمنين الصادقين، على مر حِقَبِ تاريخ المسلمين، بالمعاني، التي مرت معنا، في الفصلَيْن السابقَيْن، فأوقفهم ذلك مواقف رآها الله، ورآها المؤمنون، وحفظها لهم التاريخ، فكانت لهم لسان صِدْق في الآخرين، مما يدل دِلالة واضحة وكافية، على كون الحياة، لم تزل نابضة في عُروق الأمة، رغم استسلامها للنوم، على امتداد قرون متطاولة، غير أن نومها، لم يمنع -بفضل الله- من انبعاثِ ونَفْرَةِ طوائف من خِيرة أبنائها، للذَّبِّ عنها، والعمل على إيقاظها، مما يوقفنا بجِلاء، على سنة الله، في حفظ هذه الأمة.. فحتى حين تتعطل أجهزة التربية، وتنفلت آلياتها، تبقى الأمة وَلُوداً.. فعن أبي عَلْقَمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يبعثُ لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجَدِّد لها دينها»**[1].

نعم حتى حين تَعَطُّل هذه الأجهزة، وانفلات هاتيك الآليات، تبقى ساحة تاريخ الأمة تشهد انتفاضات الخُلَّص من أبنائها، يدعون، إلى نَفْضِ غُبار النوم عن الأجفان، والأَوْبَةِ إلى الله، بعد إباقٍ قد طال.. وعلى الرغم، من أن الاستجابة لهم، لا تكون عامة، بل يواجَهُون بالرفض وبالعداء

(١) رواه أبو داود في كتاب الملاحم، حديث رقم ١، والحاكم في المستدرك، ٥٢٢/٤، وغيرهما، وصححه غير واحد من المحدثين.

أحيانًا(١)، فإن الأمة في أعماقها، لم تزل مُحبة لأبنائها، الذي يضحُّون من أجلها، حافظة لهم، أعلى وأوغل المكانات، في عقلها ووجدانها الجمعيين، وإن تطاولَ الزمانُ.. بذلك يشهد التاريخ ، والواقع.

وفي الصفحات الآتية، سوف نستعرض -إن شاء الله- بعض الأمثلة، التي تشهد بشموخٍ، على عِزة الأمة الإسلامية، وعِزة أبنائها، وهي أمثلة، قد أُخِذت من بين آلاف الأمثلة الأخرى -ولست أبالغ- غير أننا انضبطنا لضابط، أن تكون أمثلتنا من سير مسلمين، مشهود لهم بالإمامة في الدين، معروفين غير أخفياء -وإلا فما أكثر جند الله الأخفياء- وإخال أنه ضابط وكيل، بأن يقطع دابر كل ريبة، بصحة فَهْم أئمتنا، الذين أوجبوا التبني، لهموم المسلمين، وجعلوا عدمه كفرًا، وتكذيبًا بالدين، استنباطًا من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.. كما إخالُ أيضًا، أنه ضابط كفيل، بأن يذيب جليد العجز، والتواكل، والانتظارية، الذي جَمَّدأوصال عموم أمتنا ، طيلة العهود السالفة، من جَرَّاء قلة الفَهْم، لكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، من جهة، وتعطُّل الأجهزة والآليات التربوية، من جهة ثانية.. فهنا تطبيق تَعَبُّدي، للمعاني التي مرَّت معنا في الفصول السابقة.

---

(١) فأصحاب الدعوات إلى الاستيقاظ في الأمة، يُواجَهون برفض وعداء نوي ثلاثة مصادر:

(أ) أصحاب المصالح من بني جلدتنا، الذين يخشون ذهابها إذا استيقظت الأمة.

(ب) الغافلون من أبناء الأمة، الذين [illegible] أصحاب الطائفة الأولى [illegible] أعلاه، ويوهمونهم بأن أبناءهم أعداؤهم، وبأن طلائعَ انبعاثهم وسؤددهم، جحافلُ الظلام والتخلف.

(ج) أعداء الأمة الغزاة لها -ماديًا ومعنويًا- الذين يحاربون بالطبيعة، اليقظة والانبعاث في أمة، يعتقدون أنها منجم ثروات وعبيد...

المبحث الأول: عمل الصحابة رضوان الله عليهم

عملُ الصحابةِ، مصدر معتبر من مصادر التشريع، وهو المصدر الثالث من مصادر فهم كتاب الله، بعد كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، فهم رضوان الله عليهم، سليلو عهد البعثة، وهو عهد فيه حس الإدراك لكمال الشرع، ولمقاصده على وجه الصواب، مرتفع، لأنه عهد البنيان في حالة جدته، وكماله البشري الممكن، وهذا سبب رئيس، في كون سكوت عموم الصحابة، عن ممارسة معينة، حجة كافية على شرعيتها[1]، فكيف إن نُصَّ على هذه الممارسة في الكتاب والسنة، وحَضَّ عليها الصحابة، وعملوا بمقتضاها، وأجمعوا عليها، وذُكِر ذلك من فضائلهم في مدونات الحديث والسير، التي تحدثت عن فضائل الصحابة؟

وفي ما يأتي، جوانب من تراجم بعضهم -رضي الله عنهم أجمعين- تنقل لنا مدى امتثالهم، لأوامر الله، ورسوله ﷺ، الحاضّة على تبنّي هُموم الناس:

١ - عبد الله بن رَوَاحة رضي الله عنه:

«هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت»

ينادي به رضي الله عنه، بعد مقتل جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، في غزوة مُؤْتة، ليخلفه في حمل اللواء «وهو في جانب العسكر،

(١) وهذه هي فلسفة أصل: «عمل أهل المدينة» عند الإمام مالك، رحمه الله.

ينهش ضلع جمل، ولم يكن ذاق طعاماً قبل ذلك بثلاث، فرمى بالضلع، ثم قال: وأنت مع الدنيا، ثم تقدم فأصيبت إصبعه، فارتجز فجعل يقول:

هَلْ أنت إلا إصْبَعٌ دَمِيت وفي سبيلِ الله ما لَقِيت
يا نَفْسُ إلاّ تُقْتَلِي تموتي هذا حِياضُ الموت قد صَليت
وَمَا تمَنَّيتِ فَقَدْ لَقيت إنْ تَفْعَلي فِعْلَهُمَا هُديت
وإنْ تَأخَّرْتِ فقد شَقِيت

ثم قال: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانة -لزوجته-؟ فهي طالق ثلاثاً. .وإلى فلان، وإلى فلان -لغلمان له-؟ وإلى معجف -اسم حائط له-؟ فهو لله ورسوله.

يَا نَفْسُ مَالَكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّه أُقْسِمُ بالله لَتَنْزِلِنَّهْ
طَائعةً أو لَتُكْرَهِنَّه فطَالَ ما قد كنتِ مُطْمَئِنَّهْ
هل أنتِ إلا نُطفةٌ في شَنَّه قد أَجْلَبَ الناسُ وشَدُّوا الرنَّه

فما زال رحمه الله حتى قُتل، وكان ذلك في سنة ٨ للهجرة[١]، ولم يكن رضي الله عنه جندياً نظامياً -تماماً كسائر أصحابه- وإنما قاتل في سبيل الله، من أجل نُصرة دينه، وإبلاغ هُداه للناس، بتحطيم الحواجز التي تحجزهم عنه، وتمنعهم إياه.. ففي سبيل الله، ونُصرةً للمستضعفين، قد استشهد رضي الله عنه.

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١/٤٨٤ - ٤٨٥.

٢- أبو بكر الصديق رضي الله عنه[*]

«أبقيتُ لهم اللهَ وَرَسُولَه» ..

عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: «كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، معروفًا بالتجارة، ولقد بُعث النَّبِيُّ ﷺ، وعنده أربعون ألف درهم، فكان يعتق منها، ويقوي المسلمين، حتى قدم المدينة، بخمسة آلاف درهم، ثم كان يفعل فيها، ما كان يفعل بمكة».

وعن عُمَر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: «أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نتصدق، ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبقُ أبا بكر، إن سبقته يومًا.. قال: فجئتُ بنصف مالي. قال: فقال لي رسولُ الله ﷺ: **«ماذا أبقيتَ لأهلك؟»** قلتُ: مِثْلَه. وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: **«ما أبقيتَ لأهلك؟»** فقال: أبقيتُ لهم الله ورسوله.. فقلتُ: لا أسابقك إلى شيء أبداً. •

وكما أن أبا بكر رضي الله عنه -مُعْتِق بلال- لم يكن يبخل بماله في سبيل الله، وعونِ المستضعفين، فلم يكن يبخل بنفسه كذلك، فقد «ذكر أهل العلم بالتواريخ والسِّيَر: أن أبا بكر، شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا، وجميع المشاهد، ولم يَفُتْه منها مشهد، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، حين انهزم الناس، ودفع إليه رسولُ الله ﷺ، رايتَه العظمى يوم تَبُوك».

توفي رضي الله عنه سنة ١٣ للهجرة [١].

(*) الترتيب حسب سنوات الوفاة.

(١) صفة الصفوة، ١/٢٨١.

٣- عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لو مات جَدْيٌ بطَفِّ الفُرات، لخشيتُ أن يُحاسِبَ اللهُ به عُمَر»..

كان رضي الله عنه، زمان الرَّمادة، «إذا أمسى، أُتِيَ بخُبْزٍ، قد ثُرِدَ في الزيت، إلى أن نَحَروا يومًا من الأيام جَزُورًا، فأطعمَها الناس، وغَرَفوا له طَيِّبَها، فأُتِيَ به، فإذا قِدْرٌ من سنام، ومِن كَبِد، فقال: أنَّى هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، مِن الجَزُور التي نَحرنا اليوم، قال: بَخٍ، بخٍ، بئس الوالي أنا، إنْ أكَلْتُ أطيبَها، وأَطْعَمْتُ الناسَ كَرَادِيسَها -عظامها-، ارفع هذه الجَفْنَة، هاتِ لنا غيرَ هذا الطعام.. فأُتِي بخبزٍ وزيت، فجعل يكسر بيده، ويَثْرُدُ ذلك الخبز، ثم قال: ويحك يا (يرفأ)! ارفع هذه الجَفْنَة، حتى تأتيَ بها، أهلَ بيتِ (بثمغ)، فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم...»[1].

وقد خرج رضي الله عنه مرة، «في سواد الليل، فرآه طلحةُ، فذهب عمرُ، ودخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة، ذهب إلى البيت ذلك، فإذا بعجوز، عمياءَ مُقْعَدة، فقال: ما بالُ هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني، منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، قال طلحة: ثَكِلَتْك أُمُّك طلحة! أعثَرات عُمر تتبع؟»[2]

وكان رضي الله عنه يقول: «لو مات جَدْيٌ بِطَفِّ -بشَطِّ- الفرات، لخشيتُ أن يُحاسِبَ اللهُ به عُمَر»[3].

---

(١) نفس المصدر السابق، ١/٢٨٢.

(٢) نفسه، ١/٢٨١.

(٣) نفسه، ١/٢٨٥.. والطَفُّ: ما أشرف من أرض العرب، على ريف العراق.. وطَفُّ الفُرات: شَطُّه.

وقد شهد رضي الله عنه، بدراً وأُحُداً، والمشاهد كلها، واستشهد[1] سنة ٢٣ للهجرة.

٤ - عثمان بن عفان رضي الله عنه:

«ما ضرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم».[2]

لنستمع إلى الصاحب الشهيد، رضي الله عنه، وهو يخاطب محاصريه يوم الدار، لعلهم ينثنون عن عزمتهم الظالمة، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أشرف عثمانُ من القَصْر وهو محصور، فقال: أنشُدُ بالله، من شَهِدَ رسولَ الله ﷺ، قال يوم حِراء: **«ليس عليه إلا نبي، أو صديق، أو شهيد»**، وأنا معه. فانتشد له رجال.

قال: أنشد بالله، من شهد رسول الله ﷺ، يوم بيعة الرِّضوان، إذ بعثني إلى المشركين من أهل مكة، قال: **«هذه يدي، وهذه يد عثمان»**، فبايع. فانتشد له رجال.

قال: أنشد بالله، من سمع رسول الله ﷺ، قال: **«من يُوَسِّع لنا بهذا البيت في المسجد، ببيت له في الجنة»**، فابتعته من مالي، فوسَّعْتُ به المسجد. فانتشد له رجال.

قال: وأنشد بالله، من شهد رسول الله ﷺ، يوم جيش العُسْرة، قال: **«من يُنْفِق اليوم نفقة مُتَقَبَّلة»**[3]، فجهزت نصف الجيش من مالي. قال: فانتشد له رجال.

---

(١) وذلك بشهادة رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ صَعِدَ أُحُداً، وأبو بكر وعُمر وعثمان، فَرَجَفَ بهم، فقال: «اثْبُتْ أُحُدُ، فإنما عليك نبيٌ وصديق وشهيدان».

(٢) رواه الترمذي في سننه، حديث رقم ٣٧٠٠

(٣) رواه أحمد، ٥٩/١، والترمذي في كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٩٩.

قال: وأنشد بالله ،من شهد رُومَة، يُباع ماؤها ابنَ السبيل، فابتعتها من مالي، فأبحتها ابن السبيل. فانتشد له رجال.

وأخرج الترمذي، في مناقب عثمان، عن عبد الرحمن، بن خباب السُّلَمِي، قال: خطب النبي ﷺ، فحثَّ على جيش العُسْرة، فقال عثمان: عليَّ مائة بعير، بأَحْلاسِها، وأَقْتَابِها.. ثم حثَّ، فقال عُثمان: عليَّ مائة أخرى، بأحلاسها، وأقتابها، قال: ثم نزل مِرْقَاة من المِنْبَر، ثم حَثَّ، فقال عثمان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، فرأيت النبي ﷺ يقول بيده هكذا: **«ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»**[1].

٥ - علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«يا دنيا، يا دنيا! أَبِيَ تَعَرَّضْت؟ أم لِي تَشَوَّفْت؟ هيهاتَ هيهاتَ، غرِي غَيري، قد بَتَتُّك ثلاثًا، لا رَجْعَة لي فيك»[2].

يجيئه أمينُه، ومُؤَذِّنُه، ابن النباح يومًا، فيقول: «يا أمير المؤمنين! امتلأ بيتُ المال، من صَفْرَاء وبيضاء.. فقال: الله أكبر! ثم قام متوكئًا على ابن النباح، حتى قام على بيت المال، فقال:

هذا جناي وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

يا ابن النباح! عليَّ بأشياخ الكوفة، قال: فنُودي في الناس، فأَعْطى جميعَ ما في بيت المال، وهو يقول: يا صفراء! يا بيضاء! غري غيري، ها، ها.. حتى ما بقي فيه دينار، ولا درهم، ثم أمر بنضحه، وصلَّى فيه ركعتين»[3].

---

(١) سنن الترمذي، الحديث رقم ٣٧٠٠.
(٢) صفة الصفوة، ٣١٦/١.
(٣) صفة الصفوة، ٣١٦/١.

وعن الحُرِّ بن جُرمُوز، عن أبيه قال: «رأيتُ عليًا، وهو يخرج، وعليه قِطْرِيَّتَان، وإزار إلى نصف الساق، ورداء مُشَمَّر، قريب منه، ومعه دِرَّة، يمشي بها في الأسواق، ويأمرهم بتقوى الله، وحُسن البيع، ويقول: أوفوا الكيل والميزان، ويقول: لا تَنْفُخوا اللحم»[١].

وقد شهد رضي الله عنه، المشاهد كُلَّها ،مع رسول الله ﷺ، ولم يتخلف، إلا في تبوك، فإن رسول الله ﷺ خَلَّفَه»[٢].

استشهد رضي الله عنه، سنة ٤٠هـ.

٦ - الحسن بن علي رضي الله عنهما:

«ابني هذا سيد، ولعلَّ اللهَ يُصْلِحُ به بين فِئَتَيْنِ من المسلمين»[٣].

يخرج رضي الله عنه، من ماله مرتين، ويقاسم الله عز وجل ماله، ثلاث مِرارٍ، حتى إن كان ليُعطي نعلاً، ويُمسك نعلاً[٤].

مات رضي الله عنه، سنة ٥٠هـ.

٧ - الحسين بن علي رضي الله عنهما:

ريحانة رسول الله ﷺ

يخرج رضي الله عنه، في زمن يزيد بن معاوية، ليعيد الأمر، إلى نصابه، والإسلام إلى صفائه، فيقتل في سبيل الله، والمستضعفين،

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٨/٣.
(٢) صفة الصفوة، ٣٠٨/١.
(٣) أخرجه البخاري، في كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٣٧٤٦.
(٤) صفة الصفوة، ٧٦١/١.

بكربلاء، يوم الجمعة – وقد كان يوم عاشوراء– من شهر محرم سنة ٦١هـ.[١]

٨ – أبو سعيد الخدري (سعد بن مالك بن سنان)، رضي الله عنه:

«لم يكن أحد، من أحداث أصحاب رسول الله ﷺ، أعلم من أبي سعيد الخُدْري»، (حنظلة بن أبي سفيان)[٢]

قال ابن حَجَر، في «الإصابة في معرفة أسماء الصحابة»: «روى ابن الهيثم، بن كليب، في مسنده، من طريق عبد المهيمن، بن عباس، بن سهل، بن سعد، عن أبيه، عن جده، قال: «بايعتُ النبيَّ ﷺ، أنا، وأبو ذر، وعُبادة بن الصامت، ومحمد بن مسلمة، وأبو سعيد الخُدْري، وسادس، على أن لا تأخذنا في الله لومةُ لائم، فاستقال السادس فأقاله»[٣].

وسمع مرّةً، حديث رسول الله ﷺ، الذي قال فيه: **«لا يمنعنَّ أحدَكُم مخافةُ الناس أن يتكلَّم بالحق، إذا رآه، أو علمه»**، قال أبو سعيد: «فحملني ذلك، على أن ركبت إلى معاوية، فملأتُ أُذنيه، ثم رجعتُ»[٤]

مات رضي الله عنه، سنة ٦٣هـ.

(١) صفة الصفوة، ١/٧٦٣.
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/١٧٠.
(٣) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في معرفة الصحابة، ٣/٨٥.
(٤) نفس المصدر السابق، ٣/٨٦.

المبحث الثاني : عمل التابعين (رحمهم الله)

ومن التابعين ، الذين تدل أعمالهم على امتثالهم للتوجيهات القرآنية والنبوية، التي تحض على تبني هموم الناس ، نذكر :

١- أبو مسلم الخولاني (عبد الله بن ثوب) رحمه الله :

قال عنه الداراني : «سيد التابعين، وزاهد العصر»(١) .

يقوم رحمه الله، لمعاوية بن أبي سفيان، في المسجد، وكان، قد منع العطاء عن الناس، ليتكلم عنهم، متبنياً بذلك همومهم، ومدافعاً عنهم، بكل شجاعة، وثبات، فيقول له: «يا معاوية، إنه ليس من كَدِّك، ولا كَدِّ أبيك، ولا كَدِّ أُمِّك»، حتى يغضب معاوية، وينزل عن المنبر، ثم يعود، رضي الله عنه، بعد أن اغتسل، ليضرب أروع أمثلة قبول النصيحة، مهما كانت مُرَّة، فيقول: (إن أبا مسلم، كلَّمَني بكلام أغضبني، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«الغضبُ من الشيطان، والشيطان خُلق من النار، وإنما تُطفَأُ النار بالماء، فإذا غضب أحدكُم فليغتسل»**، وإنما دخلتُ فاغتسلتُ، وصدق أبو مسلم: إنه ليس من كَدِّي، ولا كَدِّ أبي، فهَلُمُّوا إلى عطائكم)(٢) .

ويدخل مَرة على «معاوية، فيقوم بين السِّمَاطَيْن ، فيقول: السلام

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٧/٤.

(٢) ابن الأثير، الجامع للأصول في أحاديث الرسول، ٥٢/٥، وانظر سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٧/٤.

عليك، أيها الأجير» فقالوا: مَهْ! قال: دَعُوه، فهو أعرف، بما يقول.. وعليك السلام، يا أبا مسلم.. ثم وَعَظه، وحَثَّه على العَدْل»[1].

تُوفي -رحمه الله- في زمن يزيد، بن معاوية، بن أبي سفيان.

٢- سعيد بن جُبَيْر، رحمه الله:

قال للحجاج: «ترى من نفسك أموراً، تريدُ بها الهَيْبَة، وهي التي تُقْحِمك في الهلاك، وستُرَدُّ غَداً فتَعْلَم».

قال عنه إبراهيم النَّخَعِي[2]، حين علم بوفاته: « يرحمه الله، ما خلَّفَ مثله»[3].

وقال عنه ميمون بن مهران[4]: «لقد مات سعيد بن جُبير، وما على الأرض، من رجلٍ، إلا يحتاج لسعيد»[5].

يخرج رضي الله عنه، على أهل الجَوْر، ويقف في الناس، يوم دير الجماجم، وهم يقاتلون، وهو يقول لهم: «قاتلوهم على جَوْرهم في الحكم، وخروجهم من الدين، وتَجَبُّرِهم على عباد الله، وإماتتهم الصلاة، واستذلالهم المسلمين»[6].

وحين لَقِي الحجاج، بعد أن اعتقله جندُه، قال له الحجاج: «... فما تقول فيَّ؟ قال: أنتَ أعلم بنفسك. قال: بُثَّ بعلمك. قال: إذن

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٤/١٣.. سِمَاطَيْن: أي صفين، وسِماط القوم: صفهم، وقام القوم حوله سماطين: أي صفين.

(٢) تابعي جليل، ومن سادات فقهاء الكوفة، توفي سنة ٩٥هـ.

(٣) طبقات ابن سعد، ١١١/٦.

(٤) تابعي جليل من فقهاء الرقة، توفي سنة ١١٧هـ.

(٥) طبقات ابن سعد، ٢٦٦/٦.

(٦) نفسه، ٢٦٥/٦.

نسوءك، ولا نَسُرُّك. قال: بُثَّ بعلمك. قال: أعفني. قال: لا عفا الله عنِّي، إن أعفيتُك. قال: إني لأعلم أنك مخالفٌ لكتاب الله، ترى من نفسك أموراً، تُريد بها الهيبة، وهي التي تُقحمك في الهلاك... وستُرَدُّ غداً فتعلم. قال: أما والله، لأقتُلَنَّك قِتْلَةً، لم أقتُلْهَا أحداً قبلك، ولا اقتُلُها أحداً بعدَك»[1] فقتله...

وقد استشهد -رحمه الله- سنة أربع وتسعين للهجرة (٩٤هـ).

٣- مالك بن دينار رحمه الله:

«كفى بالمرء خيانةً، أن يكون أمينًا للخَوَنة».

كان رحمهُ اللهُ، من أعبد أهل عصره، يجيئة مَرة رجلٌ، قد حَبَسَ العَشَّارُ -قابض العُشْر- سفينته، فيذكر له ذلك، فقام مالك، فمَشى إلى العَشَّار، فلما رأوه، قالوا: يا أبا يحيى! ألا تبعث لنا حاجتك؟! قال: حاجتي، أن تخلوا سفينة هذا الرجل، قالوا: قد فعلنا، قال: وكان عندهم كُوزٌ، يجعلون فيه، ما يأخذونه من الناس، من الدراهم، فقالوا: ادع لنا يا أبا يحيى.. قال: قولوا للكُوز، يدعو لكم، كيف أدعو لكم، وألْفٌ يدعون عليكم؟ أترى يُستجاب لواحد، ولا يُستجاب لألْف؟!»[2].

وكان رحمه الله يقول: «كَفى بالمرء خِيانة، أن يكون أميناً للخَوَنة»[3].

مات -رحمه الله- سنة ١٣٠هـ.

---

(١) صفة الصفوة، ٨٢/٣.
(٢) نفسه، ٢٨١/٣.
(٣) نفسه، ٢٨٢/٣.

المبحث الثالث : سيرة السلف الصالح رحمهم الله

ومن السلف الصالح ، الذين جاءت أفعالهم وسيرتهم ، امتثالاً للتوجيهات القرآنية والنبوية ، بخصوص تبني هموم الناس :

١- عبد الرحمن الأوزاعي فقيه الشام، الإمام الرُكن :

قال لأبي جعفر المنصور: **أنت راعي الله، والله تعالى فوقك، ومستوفٍ منك، يوم تُوضع** ﴿ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧).

قال عنه الإمام مالك، بن أنس الأصبحي[١]: «الأوزاعي إمام يُقْتدى»[٢] .. كانت له مواقف مشهورة ، مع ملوك بني العباس، الأصلب قناة، والأصعب مراساً، عبد الله بن علي، وأبي جعفر المنصور.

يسأله الإمام الثوري، عن موقفه مع الأول قائلاً: «حَدِّثْنا يا أبا عَمرو، حديثك مع عبد الله بن علي ... قال: نعم، لما قدم الشام، وقتل بني أمية، جلس يومًا على سريره، وعبأ أصحابه أربعة أصناف، صنف معهم السيوف المسللة، وصنف معهم الجزرة، أظنها الأطبار (نوع من

---

(١) فقيه المدينة، وصاحب المذهب المشهور، توفي سنة ١٧٩هـ.
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١٢/٧.

الفؤوس)، وصنف معهم الأعمدة، وصنف معهم الكافر كوب (مقارع)، ثم بعث إليَّ، فلما صرتُ بالباب، أنزلوني، وأخذ اثنان بِعَضُدَيَّ، وأدخلوني بين الصفوف، حتى أقاموني مُقامًا، يسمع منه كلامي، فسلَّمتُ، فقال: أنت عبد الرحمن، بن عمرو الأوزاعي؟ قلتُ: نعم، أصلح الله الأمير.. قال: ما تقول في دماء بني أمية؟ فسأل مسألة رجل، يريد أن يقتل رجلاً.. فقلتُ: قد كان بينك وبينهم عهود.. فقال: ويحك! اجعلني وإياهم، لا عهد لنا.. فأجهشت نفسي، وكَرهت القتل، فذكرتُ مقامي، بين يدي الله، عز وجل، فلفظتها، فقلتُ: دماؤهم عليك حرام.. فغضب، وانتفخت عيناه، وأَوْدَاجُه.. فقال لي: ويحك! وَلِمَ؟ قلتُ: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَحِلُّ دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: ثيب زان، ونفس بنفس، وتارك لدينه»**[1]، قال: ويحك! أو ليس لنا ديانة؟ قلتُ: وكيف ذلك؟ قال: أليس، كان رسول الله ﷺ، أوصى إلى عليٍّ؟ قلتُ: لو أوصى إليه، ما حَكَّم الحَكَمَيْن.. فسكت، وقد اجتمع غضبًا، فجعلتُ، أتوقع رأسي، تقع بين يدي، فقال بيده هكذا -أومأ أن أخرجوه- فخرجتُ...[2].

قال الذهبي معلقًا على هذا الخبر: «قلتُ: قد كان عبد الله، بن علي، ملكًا جبارًا، سفاكًا للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام

---

(١) رواه البخاري، في كتاب الديات، حديث رقم ٦٨٧٨، ومسلم في كتاب القسامة، حديث رقم ٢٥.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٧/١٢٨-١٢٩.

الأوزاعي، يصدعه بمر الحق، كما ترى، لا كخلق من علماء السوء، الذين يُحَسِّنون للأمراء، ما يقتحمون به، من الظلم، والعسف، ويَقْلبون لهم الباطل حقًا -قاتلهم الله- أو يسكتون، مع القدرة على بيان الحق»[1].

وأما عن موقفه، مع أبي جعفر المنصور، في تبنّي هموم المسلمين، والدفاع عن حقوقهم، وتذكير السلطان بواجباته، تجاه رعيته، التي استرعاه الله إياها، دونما خوف في الله لومة لائم، فحدثنا أبو نعيم الأصفهاني، في حِلْيته، يقول بعد ذكر سنده إلى هذا الخبر: «لما خرج إبراهيم ،ومحمد، علىٰ أبي جعفر المنصور، أراد أَهْلَ الثُّغُور، أن يعينوه عليهما، فأبوا ذلك، فوقع في يد ملك الروم، الألوف من المسلمين الأسرى، وكان ملك الروم، يحب أن يُفَادِي بهم، ويأبى أبو جعفر.. فكتب الأوزاعي، إلى أبي جعفر، كتابًا أن:

«أما بعد، فإن الله تعالى، استرعاك أمر هذه الأمة، لتكون فيها بالقسط قائمًا، وبنبيه ﷺ في خفض الجناح، والرحمة، متشبهًا، فإن سائحة المشركين، غلبت عام أول، وقد عملت موطئهم حريم المسلمين، واستنزالهم العواتق، والذراري، من الحصون، وكان ذلك بذنوب العباد، وما عفا الله عنه أكثر. فبذنوب العباد، استنزلت العواتق، والذراري، من المعاقل والحصون، لا يلقون لهم ناصرًا، ولا عنهم مدافعًا، كاشفات رؤوسهن، وأقدامهن، فكان ذلك، بمرأى، ومسمع، وحيث ينظر الله إلى خلقه، وإعراضهم عنه، فليتق الله أمير المؤمنين، وليتبع بالمفاداة بهم، من

---

(١) نفسه، ١٢٥/٧.

الله سبيلاً... فإن الله تعالى، قال لنبيه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ (النساء: ٧٥).. والله يا أمير المؤمنين! ما لهم يومئذ من موقوف ولا ذمة، تؤدي خراجًا، إلا خاصة أموالهم، وقد بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إني لأسمعُ بُكاء الصبي خلفي في الصلاة، فأتَجَوَّز فيها، مخافة أن تُفْتَن أمُّهُ»**، فكيف بتخليتهم، يا أمير المؤمنين، في أيدي العدو، يمتهنونهم، ويتكشفون منهم، ما لا نستحله نحن، إلا بنكاح؟ وأنت راعي الله، والله تعالى فوقك، ومستوف منك، يوم تُوضع: ﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧). قال أبو نعيم بسنده، إلى أبي سعيد الثعلبي: «فلما وصل إليه كتابه، أمر بالفداء»[1].

توفي الأوزاعي رحمه الله، سنة ١٥١هـ.

٢- الإمام مالك بن أنس الأصبحي، رحمه الله:

قال لهارون الرشيد: **«كان عُمَر، ينفخ لهم النار، عام الرَّمادة، وقد رضي الناس منهم، دون هذا»**.

قال القاضي عياض، في: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك»: «قال عتيق بن يعقوب: كان مالك، إذا دخل على الوالي وعظه، وحثه على مصالح المسلمين، ولقد دخل يومًا، على هارون الرشيد، فحثه على مصالح المسلمين، فقال له: «لقد بلغني، أن عمر بن الخطاب، رضي الله

---

(١) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٦/١٣٥-١٣٦.

عنه، كان في فضله وقدمه، ينفخ لهم عام الرمادة النار، تحت القدور، حتى يخرج الدخان من لحيته، وقد رضي الناس منكم، دون هذا...»[1].

توفي رضي الله عنه سنة ١٧٩هـ.

٣- الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، رحمه الله:

«القرآن كلام الله، غير مخلوق».

ذرت فتنة الاعتزال، في الأمة بقرنها، مدعومة بسلاطين بني العباس: المأمون، وخلفائه... وينفخ في جمرها، أئمة الاعتزال، فامتحن العلماء، وأذى [illegible]رهم، وعَمَّى بعضهم تَقِيَّةً، وقُتل بعضهم، وصَمَد الإمام أحمد، صموداً، كانت الأمة لولاه، ستنحرف انحرافًا قَصِيًّا، عن جَادَّة دينها، اعتقاداً وعملاً، وقد كان يسع الإمام أحمد -كما وسع غيره- أن يُعَمِّي تقية، ولكنها القدوة والأمانة... وقد كان، رضي الله عنه، يحمل في قلبه هَمَّ الأمة كلها، وهَمَّ هداية أفرادها جميعًا.. «فعن أبي عيسى عبد الرحمن بن زادان، قال: صلينا، وأبو عبد الله، أحمد بن حنبل، حاضر، فسمعته يقول: «اللهم من كان على هوى، أو على رأي، وهو يظن، أنه على الحق، وليس هو على الحق، فرُدّه إلى الحقِّ، حتى لا يُضل من هذه الأمة أحد...»[2].

وقد لقي -رحمه الله- في سبيل الله، وأمته، بلاءً شديداً.. «فعن ميمون بن الأصبع، قال: كنت ببغداد، فسمعتُ ضجة، فقلت: ما هذا؟

---

(١) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ٩٥/٢.

(٢) صفة الصفوة، ٣٤٩/٢.

فقالوا: أحمد بن حنبل يُمْتَحن.. فدخلتُ، فلما ضُربَ سوطًا، قال: بسم الله.. فلما ضُرب الثاني، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.. فلما ضُرب الثالث، قال: القرآن كلام الله، غير مخلوق.. فلما ضُرب الرابع، قال: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾.. فضُرب تسعة وعشرين سوطًا»[١].

وعن محمد بن أبي سُمَيَّة، قال: «سمعتُ شاباص النائب، يقول: لقد ضربتُ أحمد بن حنبل، ثمانين سوطًا، لو ضربتها فيلاً لهدته»[٢].

وعن عبد الله، بن أحمد بن حنبل، قال: قال لي أبي: «يا بُني، لقد أعطيتُ المجهود من نفسي»[٣].

هذا، وإن لِقَولِ الحق، مقتضيات، من صحة، وصفاء في العقيدة، وسعة في العلم، وقوة في الإيمان، وزهد في الدنيا، يؤدي إلى القناعة، وعدم مد العين، إلى ما متَّع الله به أزواجًا منهم، زهرة الحياة الدنيا... وقد وقفنا عند الإمام، على الثلاثة الأولى، وعن الرابعة يحدثنا ابنه صالح فيقول: «ربما رأيتُ أبي، يأخذ الكِسَرَ، من الخبز اليابس، فينفض الغبارَ عنها، ثم يصيرها في قَصْعَة، ثم يصب عليها ماء، حتى تبتل، ثم يأكلها بالملح...»[٤].

ويحدثنا عنها أيضًا، النيسابوري، صاحب إسحاق بن إبراهيم، فيقول: «قال لي الأمير: إذا جاءه إفطار أرنيه، قال: فجاؤوا برغيفي خبز وخيارة، فأريته الأمير، فقال: هذا لا يجيبنا، إذا كان هذا يقنعه»[٥].

---

(١) صفة الصفوة، ٢/٣٥٠.
(٢) نفسه، ٢/٣٥١.
(٣) نفسه، ٢/٣٥١.
(٤) نفسه، ٢/٣٤٥.
(٥) نفسه، ٢/٣٥٦.

وما كان الإمام أحمد، رحمه الله، في هذا مبتدعًا، وإنما كان متأسيًا، فعن المِقْدَام بن مَعْد يكرب، عن النبي ﷺ قال: «**ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن، حَسْب ابن آدم أكلات يُقمْنَ صلبَه، فإن كان لا محالة، فثُلُث لطعامه، وثُلُث لشرابه، وثُلُث لنفسه**»[1].

وعن عِمران، بن زيد المدني، عن أبيه، قال: «دخلنا على عائشة، رضي الله عنها، فقلنا: السلام عليك يا أُمَّه! فقالت: وعليكَ السلام؟ ثم بكت، فقلنا: ما بكاؤك يا أُمَّه؟ قالت: بلغني، أن الرجل منكم، يأكل من ألوان الطعام، حتى يلتمس لذلك دواء يمرئه، فذكرتُ نبيكم ﷺ، فذاك الذي أبكاني، خرج من الدنيا، ولم يملأ بطنه، في يومٍ من طعامين، كان إذا شَبِع من التمر، لم يشبع من الخبز، وإذا شَبِع من الخبز، لم يشبع من التمر، فذلك الذي أبكاني»[2]، وإن الوهن كل الوهن، إنما ينجم من الانشغال بما الله يكفيه.. وإنه من تفضيل طعام على طعام، ووجه على وجه، وثوب على ثوب، ومسكن على مسكن، تنجم الفتنة.. وقد أُثر عن بعضهم أنه قال: «لولا ثلاثة، ما وقع حَيْفٌ، ولا استُلَ سَيْفٌ: طعام أسوغ من طعام، ووجه أصبح من وجه، وسلك[3] ألين من سلك».

تُوفي الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، سنة ٢٤١هـ.

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن، ٢/٦٠، والنسائي في السنن الكبرى، في آداب الأكل، [illegible]
١٣٢/٤، وآخرون، وهو حديث صحيح.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/٤٠٦.

(٣) يقصد: وثوب ألين من ثوب.

٤ - شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، رحمه الله[١] :

«ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي في صدري.. وسِجْنِي خَلْوة.. ونَفيي سياحة.. وقَتْلي شهادة».

يقف رحمه الله، جبلاً صامداً، في وجه التتر، ويلتحم بالجماهير المسلمة في دمشق، متبنيًا لقضاياها، ومدافعًا عنها، وتلتف حوله ثقةً به، ليسجلوا بذلك، مجتمعين ملحمة جهادية خالدة، قال الحافظ ابن كثير:

«وفي مستهل عام ٧٠٠هـ، وردت الأخبار إلى دمشق، بقصد التتر بلاد الشام، فمادت الأرض بالناس، وطاشت عقولهم، وألبابهم، وبدأوا يتهربون إلى مصر، والبلدان الأخرى، والحصون المنيعة، مما كان بنجوة، عن مَعَرَّة التتر، وغائلتهم، وبِيعَت الأمتعة، والثياب، والمحلات، بأرخص الأثمان... واستعد الشيخ ابن تيمية، لإلقاء المواعظ، والدروس، في الجامع، بنشاط بالغ، وحرَّض الناسَ على القتال، ونهاهم عن الإسراع في الفرار، وذمَّ هذه الخصلة، ورغَّبهم في إنفاق الأموال، في الذَّبِّ عن المسلمين، وبلادهم، وأموالهم، وأن ما ينفق في أجرة الهرب، إذا أنفق في سبيل الله، كان خيراً، وأوجب جهاد التتر، في هذه الكرة، وسكنت الأحوال بمجالسه المتتابعة في ذلك... فتوقف الناس، وسَكنَ جَأشُهُم، وخرج ابن تيمية، إلى نائب الشام في المرج، وكان مرابطًا خارج دمشق،

---

(١) كان رحمه الله أمَّارًا بالمعروف، نَهَّاءً عن المنكر، محاربًا للبدع وأصحابها، مجاهداً باللسان وبالسنان، حتى لقي الله وهو على ذلك.

لمقاومة التتر، وسد سيولهم، فثبّته وقوّى جاشَه، وطَيَّب خاطرَه، ووعده بالنصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿ ... وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (الحج: ٦٠).

وسأله النائب والأمراء، أن يركب على البريد، إلى مصر، ويستحث السلطان على المجيء، فساق وراء السلطان، وكان قد وصل إلى الساحل، فلم يدركه، إلا وقد دخل القاهرة، وتفارط الحال، فاستثار غيرته، وقال له فيما قال: «لو قُدر، أنكم لستم حكام الشام، ولا ملوكه، واستنصركم أهله، وجب عليكم النصر، فكيف، وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم، وأنتم مسؤولون عنهم؟!»

وقال أيضا: «إن كنتم أعرضتم عن الشام، وحمايته، اقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه، ويستغله في زمن الأمن».

وقوّى الشيخُ ابن تيمية، جأشَ السلطان للخروج إلى الشام، مرة أخرى، نتيجة الجهود المخلصة، التي بذلها في هذا السبيل، وتوجهت العساكر إلى الشام للجهاد مع التتر، ولما سمع الناس بذلك، فرحوا أشد الفرح، بعد أن كانوا يئسوا، من أنفسهم، وأهليهم، وأموالهم»[١].

واستمر، رحمه الله، مجاهداً في سبيل الله، آمراً بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، منافحًا عن شرعة الله، حتى سُجن بسجن القلعة، الذي قضى فيه نَحْبَه، وقد رافقه، أثناء فترة السجن هذه، تلميذه البار، ابن القيم، رحمه الله.

تُوفي ابن تيمية، رحمه الله، سنة ٧٢٨هـ.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ /١١-٢٣.

المبحث الرابع : سيرة أهل الدعوة والجهاد في العصر الحديث

وتستمر سلسلة النور هذه، لتشمل أجيالاً، بعد ذلك كثيرة، فأوامر الله ورسوله ﷺ بتبني هموم الناس، قد حُفظت، بحفظ الله لهذا الوحي، بشقيه، ومن ثَمَّ فهي، تثمر العمل بها ، حيثما وجد المؤمنون، الذين يفقهون خطاب الله، وخطاب رسوله ﷺ لهم.. وفيما يلي قسم من سِيَر بعض هؤلاء المؤمنين من أهل الدعوة والجهاد، في عصرنا هذا، تُنَثُّ -تُذاع- شهادةً بذلك.

١ - الأمير عبد القادر الجزائري، رحمه الله:

«ديننا يمنعنا من طلب الصلح ابتداءً، ويسمح لنا بقبوله، إذا عُرض علينا، بشروط محترمة».

كان من أكبر علماء قُطْره، وكان رحمه الله، فقيهًا عبقريًا[١]، نزل من صومعة الانشغال بالعلم والتعليم، تحت مقارع الاستعمار الفرنسي، لأن واجب الوقت، يفرض عليه مواجهته، والالتحام بالناس لطرده، فاجتمع العلماء، وأصحاب الكلمة، وبايعوا الشيخ عبد القادر، على الإمارة، والجهاد في سبيل الله، لتحرير أرض الجزائر من الغاصبين، وإقامة الشرع الحنيف... وظل يقارع الاستعمار الفرنسي ١٧ عامًا، ويرد هجماتهم المتلاحمة، وعندما عُرض عليه الصلح مع فرنسا، أجاب: «إن ديننا يمنعنا من طلب الصُلْح ابتداءً، ويسمح لنا بقبوله، إذا عُرض علينا، وإن المفاوضة، التي تطلبونها، يجب أن تكون مبنية على شروط محترمة، منا ومنكم».

---

(١) الموسوعة الحركية، بإشراف الأستاذ فتحي يكن، ١/٨٥.

وكانت أبرز معاركه، عندما حاصر (وهران) منطقة تكتل القوى الفرنسية، حيث استطاع بعد معركة، دامت ست ساعات، أن يحرز النصر، بجيشه القليل، وأسلحته المصنوعة في الجزائر، وقد انتهى الأمر، إلى توقيع اتفاقية: (دي ميشيل)، التي كانت نصراً للمسلمين، بحيث أصبح الأمير عبد القادر، حاكماً لمنطقة وهران... واستمر رحمه الله، مجاهداً، حتى استحكمت حوله، حلقات الكيد الداخلي، والخارجي، وحوصر حتى نفذت ذخيرته، واعتقل سنة ١٨٤٧م، حيث نُفي مع أسرته إلى سوريا، وبها تُوفي، سنة ١٨٨٣م[١].

٢ - عمر المختار، شهيد الألف معركة، رحمه الله:

«الإسلام يأبى الخضوع لأهله، والذُلُّ لمعتنقيه».

انطلاقاً من إدراكه العميق لتعاليم الإسلام، بخصوص الانخراط في قضايا المسلمين وهمومهم، وفقهه، أن ذلك من أرقى العبادات، وبعد جهاد طويل، في سبيل الله، والمستضعفين، دام عشرين سنة، جرت خلالها ألف معركة، يقف عمر المختار، رحمه الله، موقفه الخالد، على عتبات نيل وسام الشهادة، في سبيل الله، من أجل الناس، لدفع الظلم عنهم، ورفع الذُلُّ، عن رقابهم، وتجنيب وجوههم، الخضوع لغير الله، فيقول عقب تلاوة الكولونيل الإيطالي (مارينوني)، قرار الاتهام، يوم ٣ جمادى الأولى من سنة ١٣٥٠هـ (١٩٢٩م)... وبعد إقراره بكل ما قال: «إنكم معتدون على أرضنا وبلادنا، وإن الإسلام أوجب علينا الجهاد، ضد الغاصبين المعتدين... إنني لم أفعل شيئاً، إلا تنفيذ تعاليم الإسلام، فالإسلام «يأبى الخضوع لأهله، والذُلُّ لمعتنقيه»... فوَجَمَ القاضي الإيطالي، حين سمع قول عمر المختار، ولم يلبث، أن نطق بالحكم، الذي أعدته الحكومة الإيطالية، قبل المحاكمة،

(١) الموسوعة الحركية، ١/٨٥-٨٦.

وهو: إعدام عمر المختار شنقًا.. وفي اليوم التالي، سيق المجاهد إلى ساحة الإعدام، وظل يُردِّد الشهادتين حتى قضى شهيدًا -إن شاء الله- وكان ذلك -كما ذكرنا آنفًا- سنة ١٣٥٠هـ (١٩٢٩م)[١].

٣- الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، رحمه الله:

«افعلوا بي ما تشاؤون، من اليوم، فأنتم ظالمون على كل حال، ولا تنتظروا مني شيئًا، غير هذا».

تخَرَّج من جامعة القرويين العريقة، وتَقَلَّدَ منصب القضاء بمليلية، وقد كان رحمه الله شُعلة من النشاط، في سبيل إخراج المستعمر، من أرض الإسلام.. يُسجن سنة ١٩١٥م، بتهمة الميل للعثمانيين، والعمل على الدفاع عن الخلافة، وإلهاب الشعور الإسلامي، ضد «الصليبيين الجدد»، ويُقَدَّم للمحاكمة، أمام مجلس حربي عسكري، فيكون الحوار الآتي:

- «الجنرال (أسبورو) رئيس المجلس العسكري: هل تعمل حقًا ضد الحلفاء؟

- الأمير محمد بن عبد الكريم: نعم.

- أسبورو: وما هو سبب ذلك؟

- محمد بن عبد الكريم: لأن الدولة العثمانية، دخلت الحرب، باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية، وهي تقف بجانب ألمانيا وأستوريا، وأنا مسلم مراكشي، والخليفة نادى بالجهاد ضد الحُلفاء، لتحرير بلادنا، التي تحتلها فرنسا وإسبانيا.

- أسبورو: وما هي علاقتك بالخلافة؟

- الأمير محمد بن عبد الكريم: إنها خلافة المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، لذلك فأنا معهم لنحارب الحلفاء...

---

(١) الموسوعة الحركية، ١/٢٣٦-٢٤٠.

– أسبورو (ضاحكًا): أنا أعلم، أنك رجل نبيل، ومن أسرة نبيلة معروفة، ولكن ألا تعلم أن دولة إسبانيا ملتزمة الحياد، وأنت قاضي القضاة في منطقة الحماية؟

– الأمير محمد بن عبد الكريم: هذا لا يمنعني من القيام بواجبي، وأنا أرى كثيراً من ضباطكم، يتعاملون مع الألمان الموجودين هنا، لتغذية الحرب، ضد فرنسا، بجانب تركيا، ثم إذا كانت الوظيفة، تمنعني من القيام بالواجب، فأنا مستقيل من هذه الوظيفة، منذ الآن، لأتفرغ للقيام بالواجب المُحتَّم عليَّ»[1].

وبعد خُروجه من السجن عدة مرات، بدأ بمحاربة الإسبان، فكانت موقعة (أنوال) الشهيرة، التي أبادت فيها الفئة المسلمة الثابتة، المكونة من ألف مجاهد فقط، جيشًا مكونًا من خمسة وعشرين ألف جندي.. واستمر رحمه الله على هذه الحال، حتى أُسر سنة ١٩٢٦م، إثر مؤامرة مزدوجة، بين فرنسا وإسبانيا، ونُفي إلى جزيرة (رينيون)، وتَمَكَّن من الهرب، أثناء الطريق، بمساعدة بعض الغيورين، فأقام بمصر حتى تُوفي رحمه الله[2].

إن أحدًا يريد وجهَ الله، والدَّارَ الآخرةَ، لن يحيط، علمًا بتعاليم الإسلام في هذا الباب، إلا ويجد نفسه ملزمًا، بالوقوف في المواقف، التي وقفها هؤلاء المؤمنون الأعلام، بفضل تَشرب قلوبهم، لهذه المعاني، وإيمانهم بموعود الله.

فلم يزل الإسلام، هو الحارس الأعتد، لمصالح الناس، حيث ما وُجدوا، ومتى ما وُجدوا، حقًا، وصدقًا، وعملاً، وبَذلاً، لا تَبجحًا وقيلاً، ومزايدةً وادعاءً، كما هو الحال، بالنسبة لكثير من المبادئ، التي أقامها أصحابها في هذا المقام، فانزلقت منه، إنْ بسرعة، أو ببطء، كما ينزلق الجليد من القمم، ونبت الجرميد.

---

(١) الموسوعة الحركية، ١/ ١١٠-١١١.
(٢) نفسه، ١/١١٣-١١٤، بتصرف.

الفصـــل الرابـــع

من أسباب انحسار خُلُق تبني هموم الناس

واقع الأمة المعاصر، نتاج ترسبات كثيفة، عقيدية، وتصورية، وتربوية، واجتماعية، وسياسية... تمت عبر أزمنة تاريخية، يمكن تشبيهها بالأزمنة الجيولوجية، التي تتم خلالها الترسبات الجيولوجية على سطح الأرض.. وفهم واقعنا المعاصر، لا يمكن بالتالي، أن يتم، إلا بقراءة هذه الترسبات، والوقوف على تفرعاتها، واستجلاء أسبابها، حتى يصبح تجاوزها ممكنًا، عبر معالجة لها دقيقة، في تجزئ، ضمن شمول وتكامل.

لقد دَلَفَتْ أُمَّتُنا، إلى واقع القَصعة، الذي أنْذَرَناه رسولُ الله ﷺ(١) عَبر حِقَب متتالية، وبفعل عوامل متعددة، لعل من أهمها: انحسار خُلُق، تبنِّي هموم الناس من الأمة.. ومن هُنا، فإن بحث هذه المشكلة، ينبغي أن يؤطره، وعي قوي، بأن ثمة عوامل أخرى، أدت إلى اضمحلال قوى الأمة، وتَرَهُّل بنيتها، حتى لا نسقط في أحادية المدخل، التي من

---

(١) في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده، ١/٢٧٨، وأبو داود في سننه، في كتاب الملاحم، حديث ٤٢٩٧، والذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام: «توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟! قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ينزع الله المهابة منكم من قلوب أعدائكم، ويلقي في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

أقل سلبياتها: اختزال مشاكل الأمة، في مشكل واحد.. وبناء على هذا، فإن هدف هذا الفصل، هو محاولة قراءة الترسبات، التي أدت إلى انحسار التكافل، والتآزر، والتعاون، والشفاعة الحسنة، والتضحية في سبيل الله، والمستضعفين من واقعنا، وذلك عن طريق عرض أهم الأسباب، التي أدت إلى ذلك، وتتبع آثارها.

أولاً: السبب العقيدي

إن التشريع في الدين الإسلامي، مبني -كما لا يخفى- على الاعتقادات، وهذا سبب كون سمة القرآن المكي الغالبة، هي بناء العقيدة، وجدانيًا، وعقليًا، تمهيدًا للتشريع، الذي كان هو سمة القرآن المدني الأبرز.. فموضوع القرآن المكي الأساس هو: «حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وحقيقة العلاقات بينهما، وتعريف الناس بربهم الحق، الذي ينبغي لهم أن يدينوا له، ويعبدوه، ويتبعوا أمره، وشرعه، وتنحية ما أُدخل على العقيدة الفطرية الصحيحة، من غَبش، ودَخَن، وانحراف، والْتواء، وردّ الناس إلى إلههم الحق، الذي يستحق الدينونة، لربوبيته»[1].

وإنما كان التركيز، في القرآن المكي، على العقيدة، لأنها القضية الكبرى الأساسية، في دين الإسلام، «فالأخلاق لا تقوم، إلا على أساس

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/١٧٤٥.

من عقيدة، تضع الموازين، وتقرر القيم، كما تقرر السلطة، التي تستند إليها هذه الموازين، والقيم، والجزاء الذي تملكه هذه السلطة، وتوقعه على الملتزمين والمخالفين، وإنه قبل تقرير هذه العقيدة، وتحديد هذه السلطة، تظل القيم كلها متأرجحة، وتظل الأخلاق، التي تقوم عليها متأرجحة، كذلك، بلا ضابط وبلا سلطان وبلا جزاء... هذا جانب من سر هذا الدين، وطبيعته... يحدد منهجه في بناء نفسه، وفي امتداده، ويجعل بناء العقيدة، وتمكينها، وشمول هذه العقيدة، واستغراقها، لشعاب النفس كلها، ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، وضمانًا من ضمانات الاكتمال والتناسق»[1] بين الظاهر في عالم المعاملات، والكامن في عالم الاعتقادات، والقناعات، والتصورات، ولكنها حقيقة، قد غفل عنها المسلمون..

وقد أدت هذه الغفلة، إلى اضطرابات جسيمة في واقعهم، بسبب روم طوائف من أبناء الأمة، الذين اختطفهم عالم الأشياء، وأذهلهم عن كينونة أمتهم، تطبيق مناهج نهضوية، لا تبدأ من هذا المبتدأ.. و« خمول جماهير الشعب، يمكن التغلب عليه، إذا كان راجعًا، إلى مجرد التجنب الفطري للكد، وبذل الجهد، والتعرض للخطر، وليس بالإمكان التغلب عليه، إذا كان يعبر عن الرفض، لنفسِ المثلِ الأعلى للكفاح، لكونه مضاداً، لصميم إرادة عامة الشعب، وإحساساتهم... إن الشعوب الإسلامية، لن تقبل أبداً، بأي شيء، يخالف الإسلام مخالفة صريحة، ذلك لأن الإسلام، ليس مجرد فكرة وقانون، فقد أصبح الإسلام

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ١٠٠٨/٢

في نفوس هذه الشعوب، محبة وشعوراً، وإن كل من خرج على الإسلام، كائناً من كان، فلن يحصد غير الكراهية والمقاومة»[1].

ولهذا السبب، بقيت كل المشاريع النهضوية المطروحة، عالقة، وأصيبت الأمة بالخمول، من جَرَّاء لا مبالاة، وعدم اكتراث الشعوب، مما ضَيَّع جهوداً، وهَدَر مقدرات، الأمَّةُ اليوم في أمس الحاجة إليها... إنه الذهول عن شاكلة بنية الأمة، ومبتدأ نشأتها، وطبيعة عجنتها... إنه الذهول عن الأساس العقيدي، «وتفصيل ذلك: أنه عقب اختفاء النموذج الإسلامي للوجود السياسي -على تدهوره في أخريات أيامه، والذي كانت تعبر عنه، بشكل أو بآخر في المشرق، الدولةُ العثمانية - برزت الدولة المحدثة، التي شكلت قطيعة حادة، مع الوظيفة العقيدية، في جوهرها النقي، نتيجة لتبنيها العملي، لمبدأ العلمانية اللادينية، وتطبيقه في كافة أمورها السياسية، داخليًا، وخارجيًا، ومع ذلك، فإن مضمون الوظيفة، وجوانبها، وأبعادها المضيعة، ترسبت في الوعي، والذاكرة الجمعية، لفئات، أو طوائف الأمة، ليشكل رصيداً وعنصراً ثابتًا، على مستوى العقيدة، والقيم، وكسلوك فردي، وجماعي، وإن كان لا يجد تعبيره السياسي، وأبعاده النظامية، في الوقت الراهن»[2].

ومن هنا فإنني أرى، مع د. حامد عبد المجيد القويسي، صدق رأي من ذهبوا إلى أن «الدولة المحدثة» في البلاد الإسلامية، نتاج عملية التحديث، على النمط الأوروبي، الأمر الذي جعل منها إطاراً فوقيًا،

---

(١) علي عزت بيغوفيتش، البيان الإسلامي، ص ٢٢.

(٢) د. حامد عبدالمجيد القويسي: الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية، ص ٢٠.

مركبًا على قمة المجتمع، يحكمه، وهو منفصل عنه.. وهي أيضًا محدثة، لأنها تشكل انحرافًا، أو ابتداعًا في عقيدة المجتمع الأساسية والسائدة، والتي كان ينبغي للدولة، أن تكون أداة، ووسيلة لتحقيقها، في الواقع[1].

فالأمة انبثقت، من عقيدة التوحيد الجامعة، التي رسمت الخطوط الأساسية، والأُطُر العامة، التي يُهتدى بها، في عملية تأسيس البناء، فهذه العقيدة، هي التي وضعت مبادئ النظم، وقواعدها، وحددت مجالات الممارسة، والحركة، لتكون الدولة نتاجًا، ومحصلة طبيعية، لهذا المجتمع العقيدي، ومن ثم كان من البديهي، أن تلتزم الدولة، بأساس وجودها العقيدي، الذي قام عليه المجتمع، واستقام على طريقته، ويعني هذا، أن تجعل الدولة غايات حركتها وممارستها السياسية، نابعة من الغايات، التي تحددها وتوجبها العقيدة، وبالتالي تصبح الدولة «أداة» أو «وسيلة» لتحقيق الغايات، التي حددتها العقيدة، لوجود الفرد والمجتمع، من خلال ترجمتها، في عمليات، وأدوار متميزة، ووظائف محددة[2].

وقد أدى غياب هذه الأمور، إلى شلل المجتمعات الإسلامية، فكان من آثار ذلك، انحسار خُلُق تبنّي هموم الناس، من واقعنا.

أمر آخر مرتبط بالعقيدة، وهو أن هذا الدين، قبل أن يُكسِب الإنسانَ حقوقه، بَنى عقيدتَه، وحَرَّره وجدانيًا.. فقد حرر هذا الدينُ الإنسانَ المؤمن به، من «عبادة غير الله، ومن الخضوع لأحد غيره، فما لأحد عليه غير الله سلطان، وما من أحد يميته أو يحييه إلا الله، وما من

---

(١) انظر المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) انظر المرجع السابق، ص ١٣.

أحد يملك له ضرًا ولا نفعًا إلا الله، وما من أحد يرزقه من شيء في الأرض ولا في السماء إلا الله، وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع، والله وحده، هو الذي يستطيع، والكل سواه عبيد، لا يملكون لأنفسهم، ولا لغيرهم شيئًا...

فإذا تحرر الوجدان من شعور العبادة والخضوع لعبد من عباد الله، وامتلأ بالشعور، بأنه على اتصال كامل بالله، لم يتأثر بشعور الخوف على الحياة، أو الخوف على الرزق، أو الخوف على المكانة... وهو شعور خبيث، يغض من إحساس الفرد بنفسه، وقد يدعوه إلى قبول الذل، وإلى التنازل عن كثير من كرامته، وكثير من حقوقه، ولكن الإسلام ،لشدة حرصه، على أن يحقق للناس العزة والكرامة، وأن يبث في نفوسهم، الاعتزاز بالحق، والمحافظة على العدل، وأن يضمن لذلك كله -علاوة على التشريع- عدالة اجتماعية مطلقة، لا يفرط فيها إنسان... لهذا كله، يُعْنَىْ عنايةً خاصة، بأن يقاوم الشعور بالخوف، على الحياة، وعلى الرزق، وعلى المكانة، فالحياة بيد الله، وليس لمخلوق قدرة، على أن ينقص هذه الحياة، ساعة، أو بعض ساعة، كذلك ليس له ان يخدشها، خدشًا خفيفًا، بضرر خفيف: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ (آل عمران: ١٤٥)، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ (التوبة: ٥١)، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس: ٤٩) ..

وإذن، فلا كان الجبن والجبناء.. فالحياة والأجل، والنفع والضر، بيد الله ،دون سواه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ

وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ (يونس: ٣١)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر:٣)...

ويقرر القرآن أن خوف الفقر، إنما هو من إيحاء الشيطان، ليضعف النفس، ويصدها عن الثقة في الله، وعن الثقة في الخير: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٨)(١).

ويتتبع كتاب الله، في نفس الإنسان،، كل ذرة من خوف، أو قلق، أو هوان، من شأنها أن تحجم به عن طلب المعالي، والسعي في رضا الله، أمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وإقرارًا للحق، ودفاعًا عن حقوق الناس، وتبنيًا لهمومهم، ذرة قد تبقى مخبوءة في بعض حنايا النفس، أو مساربها، ليزيلها، من خوف على مكانة، فالمُلك بيد الله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران:٢٦)، أو من إحساس بقلة قدر، أمام من هم أشرف نسبًا، وأعظم جاهًا، فيقرر سبحانه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣).

---

(١) انظر للتوسع سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ٣٦ – ٤٢.

ويعالج سبحانه النفوس المريضة بالإحساس بالصَّغار، أمام أرباب الأموال، بحكايته تعالى لقصة قارون، التي ختمها بقوله عز وجل: ﴿ ... قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (القصص: ٧٩-٨٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ ﴾ (طه: ١٣١).

وقد يتحرر الإنسان، من كل ما سبق، حين تستتب العقيدة الحق في قلبه، ولكن يبقى مستذلاً لذاته، وشهواته، وعلائقه، فيستاصل الله هذا الإصر، ويكسر هذا الغلَّ، بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

وقد أعجبني تعليق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية ، حيث قال : « وهكذا يجمع في آية واحدة جميع اللذائذ ، والمطامح ، والرغائب ، ونقط الضعف في نفس الإنسان ، ليضعها في كفة ، ويضع في الكفة الأخرى ، حُبَّ الله ورسوله ، وحب الجهاد في سبيله ، لتكون التضحية كاملة ، والتخلص من أوْهَاق -أحْبَال - الشهوات كاملاً ، فالنفس التي تتحرر من هذا كله ، هي النفس ، التي يتطلبها الإسلام ، ويدعو إلى تكوينها ، لتستعلي على الضَّرَاوة المذلة ، وتَمْلِك قِياد أمرها ، وتَنْزِع إلى ما هو أكبر ، وأبعد مدى ، من الرغبات الوقتية الصغيرة . . . وما كان هذا تحذيراً ، ولا دعوة إلى الزهد ، وترك طيبات الحياة ، كما يحلو لبعضهم أن يفسر القرآن ، أو كما يحلو لبعضهم ، أن يتهم الإسلام ، إنما كان دعوة للتحرر والانطلاق ، من ضعف الشهوات والغرائز ، ثم لا ضرر بعد ذلك ، من الاستمتاع بالحياة ، حين يملكها الإنسان ، ولا تملكه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (الأعراف :٣٢) ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص :٧٧) »[١] .

إن العقيدة الإسلامية ، حال ملامستها لشِغَاف القلوب ، وتجذرها في تلافيف العقول ، حيث ينقدح الفهم لها ، والإيمان بها ، فينتشران جناحين ، يطيران بالإنسان ، نحو آفاق العزة ، والكرامة ، فالعمل والجهاد ، لنيل مرضاة الله ، والحصول على موعوده ، ومَنْ أَصْدَقُ من الله وَعْداً . . . إن العقيدة حال حياتها ، ونبضها ، وليس حال كونها مسجونة ، في العقول ، والكراريس في المجامع العلمية ، إن هذه العقيدة هي التي ، حين تتأصل في

---

(١) سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، ص ٤٢ بتصرف .

نفوس المسلمين، تدفعها لأن تتجند، وتصبح أوامر الله عز وجل، ورسوله ﷺ، المُطَالبة بتبني هموم الناس، والتكافل معهم، ودفع الحقوق المعلومة في الأموال، للسائلين والمحرومين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أوامر مُتَلَقَّاة تَلَقِّي تنفيذ، لا تَلَقِّي تَعَلُّم، ومَلء للجَعْبَة، مما يحمي الأمة، ويجعل نُسْغ -ماء- الحضارة يسري في كِيانها، فَوَّارًا نافعًا -بإذن الله- نفعًا غير لازم، بل متعديًا للآخرين.

مسألة أخرى أيضًا، لها ارتباط بالجانب العقيدي، وهي تعطيل قانون السببية، انطلاقاً من تأصيلات طائفة من متكلمي الأمة، حتى قال محمد بن عمر الرازي: «كُل من فعل فعلاً لأجل تحصيل مصلحة، أو لدفع مفسدة، فإن كان تحصيل تلك المصلحة أولى من عدم تحصيلها، كان ذلك الفاعل قد استفاد بذلك الفعل تحصيل ذلك، ومن كان كذلك كان ناقصًا بذاته مستكملاً بغيره، وهو في حق الله محال، وإن كان تحصيلها وعدمه بالنسبة إليه سواء، فمع ذلك لا يحصل الرُّجْحَان -بضم الراء وفتحها- فامتنع تحصيلها...»[1].

قال ابن القيم - وكان ممن تفطَّن إلى خطورة هذه القضية -: «ولا تستهن بأمر هذه المسألة، فإن شأنها أعظم، وخطرها أجل، وفروعها كثيرة... ومن فروعها، أنهم لما تكلموا فيما يحدثه الله تعالى من المطر، والنبات والحيوان، والحر والبرد، والليل والنهار، والإهلال والإبدار، والكسوف والاستسرار، وحوادث الجو وحوادث الأرض... لم يسببوا لذلك سببًا، إلا مجرد المشيئة والقدرة، وأن المُرَجِّح يرجح مثلاً على مثل، بلا مُرجِّح، ولا سبب، ولا حكمة، ولا غاية، يفعل لأجلها، ونفوا

(١) ابن القيم، شفاء العليل، في مسائل القضاء والقدر والتعليل، ص ٢٠٦.

الأسباب والقوى، والطبائع، والقرائن، والحِكَم والغايات، حتى يقول من أثبت الجوهر الفرد منهم: إن الفلك والرَّحا، ونحوهما مما يدور، متفكك دائمًا عن الدوران، والقادر المختار يعيده كل وقت كما كان، وأن الألوان، والمقادير، والأشكال، والصفات، تعدم على تعاقب الآنات، والمختار القادر يعيدها كل وقت، وأن مُلوحة ماء البحر، كل لحظة تعدم وتذهب، ويعيدها القادر المختار، كل ذلك بلا سبب، ولا حكمة، ولا علة غائية.. ورأوا أنهم لا يمكنهم التخلص، من قول الفلاسفة، إلا بذلك، ورأىٰ الفلاسفةُ، أنهم لا يمكنهم الدخول في الشريعة، إلا بالتزام أصول هؤلاء، ولم تهتد الطائفات للحق، الذي لا يجوز غيره، وهو أنه سبحانه، يفعل بمشيئته، وقدرته، وإرادته، ويفعل ما يفعله بأسباب، وحِكَم، وغايات محمودة، وقد أودع العَالَمَ من القوى، والطبائع، والغرائز، والأسباب والمسببات، ما به قام الخَلْقُ والأمر، وهذا قول جمهور أهل الإسلام، وأكثر طوائف النظار، وهو قول الفقهاء قاطبة، إلا من خلى من الفقه ناحية، وتكلم بأصول النُّفَاة، فعادىٰ فقهُهُ أصلَ دينه»[1].

وقال رحمه الله، ردًا على هذه المسألة: «إنه سبحانه ربَط الأسباب بمسبباتها، شرعًا وقَدَرًا، وجعل الأسباب محل حكمته، في أمره الديني والشرعي، وأمره الكوني والقَدَري، فإنكار الأسباب، جحد للضروريات، وقدح في العقول والفِطَر، ومكابرة للحس، وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل سبحانه، مصالح العباد في معاشهم، ومعادهم، والثواب، والعقاب، والحدود ، والكفارات، والأوامر، والنواهي، والحِل، والحُرْمة، كل ذلك

---

(١) ابن القيم ، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل ، ص ٢٠٦.

مرتبطًا بالأسباب، قائمًا بها... فالأسباب محل الشرع والقَدَر، والقرآن مملوء بها، كقوله: ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾، ﴿ **بما كنتم تكسبون** ﴾، ﴿ **كلوا واشربوا بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾، ﴿ **جزاءً وفاقًا** ﴾»[1].

وقال في كتابه: الجواب الكافي، لمن سأل عن الدواء الشافي: «وقد رَتَّب الله سبحانه حصول الخيرات، في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور، في الدنيا والآخرة، في كتابه، على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والسبب على المسبب، وهذا في القرآن يزيد على الألف موضع»[2].

وبعد أن يعطي أمثلة متعددة على ذلك، يقول: «وبالجملة، فالقرآن من أوله إلى آخره، صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية والأمرية، على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة، ومصالحهما ومفاسدهما، على الأسباب والأعمال، ومن تَفَقَّه في هذه المسألة، وتأملها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع، ولم يَتَّكل على القَدَر، جهلاً منه، وعجزاً، وتفريطًا، وإضاعة، فيكون توكله عجزاً، وعجزه توكلاً، بل الفقيه كل الفقيه، الذي يَرُدُّ القَدَر بالقَدَر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش، إلا بذلك، فإن الجوع، والعَطش، والبرد، وأنواع المخاوف والمحاذير، هي من القَدَر، والخَلْق كلهم ساعون، في دفع هذا القَدَر بالقَدَر، وهكذا من وفَّقه الله، وألهمه رشده، يدفع قَدَر العقوبة الأخروية، بقَدَر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة.. فهذا وزن المخوف في الدنيا، وما يضاده،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص ١٠.

فرَبُّ الدارين واحد، وحِكْمتُه واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا، فهذه مسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، والله المستعان»[1].

إن انتشار عقيدة إبطال الأسباب في الأمة، قد أفضى بها إلى العجز، وإلى التواكل، مما جعل عطاءها يغيض، وعقول أبنائها تنكمش، وتقصر عن الإبداع، فشاع التعامل مع الكون، استهلاكًا وتأثرًا، وليس إبداعًا وتأثيرًا... الأمر الذي جَرَّ عواقب غير مرضية، وأسهم بفعالية في إدخال الأمة، إلى فترة جمود، قد طالت.

يقول د. عمر عبيد حسنه -وهو ممن تفطن إلى خطورة هذه المسألة، وصنَّفها من ضمن إصابات العقل المسلم-: «تم التجانف والعدول في التعامل، عن السنن الجارية، واكتشاف قوانين التسخير - إذ أسقطت الأسباب- إلى السنن الخارقة، وانتظار المنقذ القادم من الغيب، ليعالج التخلف، والتأخر، والتمزّق... وفي هذا، ما فيه من مجافاة للعقل المسلم، وللإنجاز الحضاري في عصر النبوة، فترة القدوة، لكنها إفرازات مناخ التخلف، واجتهادات عصر التخلف»[2].

ويا ليت الأمر اقتصر على الجانب العملي، بل تعدت الإصابة إلى الجانب التنظيري العلمي، فالغيت المقاصد، إذ استُبعد -من المنطلق الذي بسطنا الكلام عنه- أن تكون الشريعة وضعت لعلة، وسبب جلب المصالح العاجلة والآجلة للعباد، في الدنيا والآخرة، مما جعل عطاء فقهاء الأمة، ينحسر دون مجال الكشف عن مقاصد الشارع من شرعه، وهو

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠ - ١١.

(٢) عمر عبيد حسنه، حتى يتحقق الشهود الحضاري، ص ١٠.

مجال كان من شأنه، أن يوسع آفاق الأمة، ومداركها، ويجنبها الوقوع في نكبات كثيرة، سياسية، واجتماعية، واقتصادية، كمثل ما كان يمكن أن يقع، لو وزّع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أراضي سواد العراق، ولم يتفطن إلى مقاصد الشرع، في وجوب عمارة الأرض، وعدم تركها في يد ثُلَّةٍ قليلة، لن تستطيع تثميرها، وفي الحفاظ على كرامة الناس، بعدم تجريدهم من مقدراتهم الأساسية، ووضعها في أيدي قلة من الناس، يتميزون عن باقي الخلق بثرواتهم، فيتسلطون عليهم، وهذا مما يصطلح على تسميته بـ: «أصل اعتبار المال».

وقد جرّت الغفلة عن هذه المقاصد، وقوع المحاذير التي ذكرنا، وأخرى معها في العصور اللاحقات... ويرحم الله أبا إسحاق الشاطبي، إذ رفع عقيرته للدفاع عن كون الشريعة، مبنية على علل، مفنداً رأي من ذهب إلى عكس ذلك، فقال: «وزعم الرازي أن أحكام الله ليست معللة بعلة البتة، كما أن أفعاله كذلك... والمعتمد إنما هو أننا استقرينا من الشريعة، أنها وضعت لمصالح العباد، استقراءً لا ينازع فيه الرازي ولا غيره، فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل، وهو الأصل: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء:١٦٥)، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وقال في أصل الخلقة: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود:٧)، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)،

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك: ٢).

وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة، فأكثر من أن تحصى، كقوله بعد آية الوضوء: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة: ٦). وفي الصلاة: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥). وقال في القبلة: ﴿ ... فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ (البقرة: ١٥٠). **وفي الجهاد**: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ (الحج: ٣٩). وفي القصاص: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة: ١٧٩). وفي التقرير على التوحيد: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

والمقصود التنبيه، وإذا دل الاستقراء على هذا، وكان في مثل هذه القضية مفيداً للعلم، فنحن نقطع، بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة... ومن هذه الجملة، ثبت القياس، والاجتهاد، فلنجر على مقتضاه»[١].

أعلم أنني، قد أطلتُ بعض الشيء، في بسط هذه القضية، وظني، أنه بَسْطٌ يقتضيه المقام، وذلك لأن هذه الإصابة، قد تخمّرت في كِيان

---

(١) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ٦/٢ - ٧.

الأمة، طيلة قرون، وكانت لها آثار سلبية، من أجلاها، الجمود، والتسليم في تاريخنا وحياتنا للآخرين، كيما يصوغوهما، وفق ما يحلو لهم، وقصورنا عن التنقيب، من أجل الكشف عن مقاصد شرعة ربنا، والوقوف على مرامي مراده منا.

وعمومًا فإن تجاوز هذا الواقع، لا شك، سوف يحتاج إلى جهد، ليس باليسير، وإلى وقت، ليس بالقصير، غير أن ذلك يبقى في حيز الممكن، ويبقى التحقق به، مرتبطًا بالوعي العميق، بطبيعة المشكلة، والإرادة الصادقة لتجاوزها، والقدرة الكافية، فكرياً وماديًا، لاتخاذ التدابير الممكنة، من هذا كله، تخطيطًا، وتنزيلاً، على واقعنا، وإن انبعاث إرادات المسلمين، لتبني هموم بعضهم بعضًا، والتكافل مع بعضهم بعضاً، لرهين بتخطي هذه العقابيل الدقيقة والمزمنة والله الموفق.

ثانياً : السبب التربوي

كثيراً ما يصيبنا الذهول عن خطورة المسالة التربوية، وخصوصًا الجانب التأسيسي منها، فطفل اليوم، هو مسؤول الغد، ومن هنا جسامة مسؤولية، دوائر التربية، التي يتقلب فيها النشء، بدءًا بالأسرة، ومروراً بالمدرسة، فالشارع، وانتهاءً بالدولة المؤطرة، لقنوات التربية المختلفة، من

وسائل إعلام متنوعة، على تعدد محتوياتها، وحمولتها[1]، وعلاقات اجتماعية، واقتصادية، وممارسة سياسية.

ولعل أهم هذه الدوائر على الإطلاق، هي (دائرة الأسرة)، التي أشار إلى خطورتها رسولُ الله ﷺ حين قال: «**كل مولود يُولَد على الفطْرة، فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بَهيمةً جَمْعَاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**»، قال أبو هريرة -وهو راوي الحديث- واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠)»[2].

فالأسرة تمثل النواة الأولى، لتخريج الإنسان الصالح، إلا أننا نلحظ أنها في أوطاننا، معطلة، مهملة، من كل توجيه، إلا ما ندر جداً، فانكمشت وظيفتها في الإيواء، والإطعام، والمداواة، والكسوة، والدفع إلى المدرسة، في أحسن الحالات، على وجود تربية عكسية، تدرب بصرامة على الخنوع، وقبول القمع والاستبداد، واتهام النفس في كل حال، بحق، وبغير حق، فالأب يستبد بالجميع، والأم بعده، والذكور بالإناث، ثم الكبير فالكبير.. وحتى مناهج التعليم، ومنذ الكُتَّاب،

---

(١) أو لنقل على الأقل: إن الدولة تؤطر تقنيناً وإشرافاً، بعض وسائل الإعلام، وتؤطر فعلياً ومباشرة معظمها، وأقواها، حتى في البلاد المتقدمة، حيث كشفت حرب الخليج زيف الزعم القائل: بحرية واستقلال وسائل الإعلام هناك.

(٢) رواه البخاري، في الجنائز، ١٣٨٥، ومسلم في كتاب القدر، حديث رقم ٢٢.
- جمعاء: أي سليمة من العيوب، مجتمعة الأعضاء، كاملتها، فلا جَدْع بها..
- جدعاء: أي مقطوعة الأطراف، أو واحدها.

تُعطىٰ المشروعية العليا فيها ، للعنف والرعب ، وليس للتفهيم، والأخذ بالحسنى.

أضف إلى ذلك، انحساراً في الجانب التنظيري، والتخطيطي، الذي من المفروض أن تضطلع به الدوائر المختصة في الأمة، والتي ترصد لها الميزانيات -قَلَّت أم كثرت- من أجل هذا الغرض، يمر ذا إلى الشارع، فيؤطره بأسلاك الخوف، ونزعات استعمال القوة، بكل أصنافها، من محسوبية، وجاه، ومال، وكيد، وغيرها، مما يتجلى في كل انماط العلاقات السائدة في المجتمع، أفقية وعمودية، الأمر الذي يجعله عقيماً، لا ينتج الأحرار المتميزين، الذين يعرفون المعروف، وينكرون المنكر، فيفضي ذلك، إلى اندحار المجتمع، وسيوخه في أوحال العبودية، إذ حين يغيب هذا الصنف من الناس، الذي يستدرج بين جنبيه دين الأمم، ونُسْغها الحضاري، وهويتها، وذاكرتها، يحصل الانزلاق نحو السراب، وتصبح هذه الأمم أحاديث، وتُمَزَّق كل مُمَزَّق، يقول تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٦-١١٧)

فضروري إذن، ان تبلور وسائل تربوية، تربي الناس جميعاً، بمختلف مستوياتهم العمرية، والاجتماعية، والعملية، وتوظف كل القنوات المتاحة ، من إعلام، وسياسة، ومنتديات ثقافية، وممارسات اقتصادية، ومؤسسات اجتماعية، في سبيل ذلك، وهي قنوات، ينبغي أن ترشد،

وأن يضبط التعاملَ معها، استراتيجيةٌ مستوعبةٌ، يكون وضعها بعد دراسة، وبحث مستوفيين، حتى تعمل هذه القنوات، بتناسق، وتكامل، وليس بتنافر، وتعارض، لأن ههنا أخطر منطلقات الحياة، في أمة من الأمم، وهو منطلق التربية، والتنشئة، والتوجيه، يقول الرئيس المسلم، علي عزت بيغوفيتش:

«إن القرآن، يشتمل على مبدأ، وهو مبدأ مشترك للأديان الكبرى جمعاء، بأن المجتمع، إنما يمكن تنظيمه، عن طريق الإنسان، وبأنه ليس باستطاعة القوانين –وحتى الشرائع السماوية– إقامة مجتمع مثالي، بين الناس الفاسدين خلقيًا... إن إصلاح المجتمع، إنما يمكن، أن يقوم على أساس الإيمان بالله، والتسليم بحكمه، وعن طريق تربية الإنسان، فعلينا أن نسلك هذه السبيل الوحيدة، المؤدية إلى الهدف المنشود»[1].

بهذا فقط، يمكن أن نَضْحَى قادرين، على تعليم الناس الحرية، بمفهومها الإسلامي[2]، وتعليمهم قيمها، وفضيلة الدفاع عنها، والموت

---

(١) علي عزت بيغوفيتش ، البيان الإسلامي ، ص ٢٧ و ٢٨.

(٢) «فإذا كان الإسلام ثورة شاملة على الطواغيت، والظلمة، تحريراً لإرادة الإنسان، من كل عبودية لغير الله، جاز لدارسي الإسلام، تلخيصه بأنه : ثورة تحررية شاملة، فما ينبغي أن يفهم من الحرية، معناها المتداول، أنها مجرد إباحة أو إذن، فليس وارداً في منطق الحق، أن تلخص رسالة الإسلام التحررية، التي حملها إلى البشرية من أول الخليقة، آلاف الأنبياء والرسل، فضلاً عن خلفائهم في الإعلان العام للناس، في أن الله يأذن لكم في أن تفعلوا ما تشاؤون !! لا ، بل إن إشعار تلك الرسالة، على النقيض من ذلك تماما: إن الله خالقكم، ينهاكم أن تتبعوا أهواءكم، وجهالاتكم، ويأمركم أن تتبعوا ـ عن وعي، وإرادة، وقصد خالص ـ النهج الذي ارتضاه لحياتكم، ففيه وحده سعادتكم، ورقيكم في الدنيا والآخرة، وفي التنكب عنه الشقاء الأبدي، وأن الحرية في التصور الإسلامي ، أمانة، أي مسؤولية، ووعي بالحق، والتزام به، وفناء فيه» (راشد الغنوشي ، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ص ٣٧ و ٣٨).

في سبيلها، وبهذا فقط، يمكن أن تصبح تربيتنا، قادرة على تخريج أحرار، يعيشون هذه الحرية -المنحة الإلهية- ويحترمونها، وتصبح تربيتنا أيضاً، قادرة، على تعليم الناس، أنهم إخوة، وأن التكافل بينهم، واجب، مأجورون عليه، من لدن الله، وإلا فإن الخطاب التعليمي المحدث، عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتبني هموم الناس، المقتصر على التحديث، دون المرور إلى التربية، لن يجدي كثيراً، لأنه لن يجد النفوس، التي تحمله، وتحيا به، وله.

ثالثاً : السبب التصوري

سادت في العالم الإسلامي، خلال العصور الأخيرة، تصورات سلبية، حادت بالمسلمين عن المشاركة الإيجابية، في حل مشاكل مجتمعاتهم، وحادت بهم، عن التبني المتبادل، لهموم بعضهم بعضاً، فقد كانت المسألة، مسألة الزهو، بخصائص الفكر الإسلامي، أمام الفكر الآخر، ولم تكن المسألة، مسألة الانطلاق، بالفكر الإسلامي، ليتحول إلى واقع حي، ينظم للإنسان حياته، بشمولية، واتزان[1]، وقد حل هذا بساحتنا، في غياب الوعي، بأن البعد عن المعترك السياسي والاجتماعي - تجانف عن الشخصية الإسلامية، في اكتمالها، وتخل عن تاريخنا للآخرين، كيما يصوغوه بالشكل الذي يهيئ الأمة، لأن تخدم مصالحهم المتورمة، المتفقة مع ملامح المستقبل، الذي يرومون العيش في أكنافه.

(١) انظر محمد حسين فضل الله ، مجلة العالم ، عدد ٣٦٨ ، ص ٣٦.

لقد كانت القضية المطروحة، هي أن الدين شيء، والسياسة شيء آخر، فلا يجوز تسييس الدين، ولا تديين السياسة، لأن الدين، علاقة الإنسان بربه، بينما تمثل السياسة علاقة الإنسان بالإنسان!! واستراح هذا التصور في الذهنية العامة، واستغرق فيه أغلب علماء الدين... ولعل هؤلاء، الذي يطلقون هذه الأفكار، من خلال هذه الذهنية، ينطلقون من النظر إلى الممارسة القلقة، التي تتحرك فيها السياسة، في الواقع المعيش[1]، لدى الفئات المنحرفة من الأمة، أو الجماعات الكافرة، في سلوكها القلق المنحرف، عن خط الإسلام، مما قد يخلق انطباعًا، بأن السياسة، تعني الانحراف، في دائرة الكذب، والدجل، والنفاق، مما يختلف كليًا ،عن مفاهيم الصدق، والإخلاص، والإيمان، فلا يمكن للإنسان المسلم الملتزم، أن يلتقي بها، من قريب، أو من بعيد، وربما كان بعض هؤلاء، يفكرون، بأن الاقتراب من السياسة، يمثل الاقتراب من مواقع الخطر، الذي يلتقي، مع إلقاء النفس في التهلكة، المحرم شرعًا، باعتبار أنه يمثل خط المواجهة، للقوى الكبرى، التي تملك القوة الساحقة المدمرة، والأجهزة الخفية الدقيقة، والإعلام الجبار، والمواقع الاقتصادية الواسعة، والمواقف السياسية الحاسمة، التي تؤدي إلى نتائج صعبة، على صعيد سلامة الواقع الإسلامي ككل[2].

---

(١) وعموماً ، فإن القول بفصل الدين عن السياسة، قول سياسي ، وليس بعلمي ، فالعلم يؤكد أن الممارسة السياسية تحتاج إلى أرضية قيمية (Etique)، تؤطرها، وليس كالدين ما يوفر هذه الأرضية القيمية .. كما يثبت العلم أيضاً أن الممارسة السياسية، لم ترشد في العالم الإسلامي، إلا في فترات اتصالها بالدين، ولم تنحرف إلا في فترات انفصالها عنه.

(٢) انظر محمد حسين فضل الله ، مجلة العالم ، عدد ٣٩٦ ، ص ٣٦.

إلا أن الممارسة السياسية في الإسلام، تخضع للضوابط الإسلامية، في أخلاقية السلوك، مما يمكن، أن يجعل حركتها مختلفة، عن الواقع السياسي المنحرف، من دون أن يدفعها ذلك، إلى السقوط في دائرة السذاجة، التي تسقط مواقفها، وتهز مواقعها، بفعل الأساليب الملتوية في سياسات الآخرين، لأن للأخلاق الإسلامية، واقعيتها، فيما يحمله ذلك من استثناءات، تنقذ الواقع، من المازق، وتحمي الناس، من استغلال الآخرين، للقيم الروحية، أو الأخلاقية في الإسلام، بل تنسجم معها، في مرونتها العملية المتحركة، التي توحي، بأن المحرمات، انطلقت من أجل إنقاذ الإنسان، من الضرر، وتوجيهه نحو النفع، فإذا اقتربت، من الخط الأحمر، الذي قد يسقط معه الإنسان، فإن العزيمة تتوقف، لتفسح المجال للرخصة، التي تترك لها حرية الحركة -ضمن ضوابط معروفة ومقررة- في نطاق تحقيق الأهداف العليا[1].

وهذا هو الذي يجعل من جواز الكذب، في بعض المواقع، من مثل: «خذل عنا»، ليتحول الكذب من قيمة محرّمة في ذلك الموقع، إلى قيمة جائزة، تنقذ الموقف.. قال ابن إسحاق، في سياق كلامه عن غزوة الأحزاب: «ثم إن نعيم، بن مسعود، بن عامر، بن أنيف، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمتُ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: **«إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خُدعة»**، فخرج نعيم، بن مسعود، حتى أتى بني قُرَيظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية، فقال: يابَني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت،

---

(١) انظر المقال السابق نفسه، بتصرف.

لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا، وغطفان، ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم، لا تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا، وغطفان، قد جاءوا، لحرب محمد، وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم، وأموالهم، ونساؤهم، بغيره.. فاقنعهم ألا يتورطوا مع قريش، وغطفان في قتال، حتى يأخذوا منهم رجالاً رهائن، كي لا يولوا الأدبار، فيبقون وحدهم في المدينة، دون أي نصير، على محمد، وأصحابه، فقالوا: إنه لَلرأي.. ثم خرجَ حتىٰ أتى قريشًا، فأنبأهم أن بني قريظة، قد ندموا على ما صنعوا، وأنهم اتفقوا خُفية مع رسول الله ﷺ، على أن يختطفوا عدداً من أشراف قريش، وغطفان، فيسلموهم له، ليقتلهم، وقال لهم: إن أرسلت إليكم يهود، يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم، فإياكم أن تسلموهم رجلاً منكم.. ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم مثل الذي قال لقريش، وهكذا تألب بعضهم على بعض، وفقدت الثقة فيما بينهم، وأصبح كل فريق يتهم الآخر بالغدر والخيانة»[1]، فانفرط عقْد وحدتهم، واختل أمرهم، وصارت عاقبته للمسلمين.

وهذا الأصل، هو الذي يجعل الغيبة واجبة في نطاق حركتها، في ساحة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومستحبة في دائرة النصيحة للمسلمين، وجائزة مباحة في أحوال أخرى، ضمن ما أباحه الشرع، وهذا أيضًا، هو الذي يبعد المداراة من أن تكون نفاقًا: «**إنَّ شَرَّ الناسِ عند الله منزلةً يوم القيامة، مَن تَرَكَه الناسُ مَخَافَةَ شَرِّه**»[2]، والانفتاح من أن

(١) السهيلي، الروض الأنف، ٣/٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) رواه البخاري، في كتاب الآداب، المداراة مع الناس، حديث رقم ٦١٣١.

يكون تنازلاً، والمهادنة من أن تكون استسلامًا، إذا انضبطت بضوابط التشريع الإسلامي، الذي تحفل فيه القواعد العامة بالكثير من الاستثناءات، في الواجبات والمحرمات، وهي استثناءات تقدر بقدرها.

إن الإسلام دين واقعي، تتجلى واقعيته في تصوراته للإنسان، والكون، والحياة، وتتجلى في تشريعاته.. فالإسلام ينص على أن القدرة، هي حد التشريع، الذي يقف عنده، فلا يتحرك إلا معها، فإذا انتهت القدرة، وقف التشريع حيث هو، لا يتقدم، ولا يتأخر: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن: ١٦)، فليس هناك ضيق على الإنسان في التشريع، بل هو المجال الواسع، الذي يجعله يتحرك براحة وحرية، فإذا ضاق عليه حكم، وَسِعَه آخر، فهناك قاعدة نفي الحرج: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج: ٧٨)، وقاعدة: «الضرار يزال»، وقاعدة: «لا ضرر ولا ضرار»، وقاعدة: «الأمر إذا ضاق اتسع».

فالواقعية اتجاه عام في الدين الإسلامي، وإذا كان هذا هو الأصل، فلن تشذ عنه الممارسة السياسة، فالإسلام واقعي أيضًا، في ممارسته السياسية، إلا أن هذه التصورات، حين اختفت في أذهان المسلمين، وغابت عنهم، هذه الضوابط، أصيبوا بالجمود، الناجم عن حُبٍّ، بل وَهْم التَّنَزُّه، مما أسقطهم، في مفسدة إسلام أنفسهم، ومقدراتهم للآخرين، ليتصرفوا بذلك، كيف شاءوا، غافلين عن كون التجربة التاريخية، قد بينت، أن انخراط المسلمين، في مواجهة التحديات الاستكبارية

الساحقة، المفروضة على الواقع المسلم، بالآليات المناسبة، تقدح زند حركية المجتمع المسلم كله[1]، بمنحها لأفراده الثقة بأنفسهم، وبإسلامهم، بحيث تصبح للفرد المسلم شخصية جديدة ،تفصله عن الشخصيات الأخرى، لا انفصال العزلة عن الناس، ولكن انفصال الشخصية، ذات الملامح الأصلية، عن الشخصيات، ذات الملامح المزيفة، أو الخصائص الأخرى..

إن هذه المغالبة، تنزع الإنسان المسلم، من استسلاميته للتيارات الأخرى، بملئها للفراغ، الذي تتركه الممارسة المحيدة، لعموم المسلمين، عن عملية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بكل مراتبه، فهي توقظ في الإنسان، الإحساسَ بالامتلاء، الذي لا يترك فراغًا، تتسرب منه ساربة، من فكر، أو ممارسة، مبعدين عن مرضاة الله، مما تنهدم معه الهوة بين النص والواقع، بوجود الإنسان الفعال، الواثق بربه، وبدينه، الذي يكوِّن بعقله، وبروحه، وجسمه، الجسر بينهما، كما تنهدم مع هذه المغالبة، الهوة بين قدرات الإنسان المسلم وإنجازاته، لأن أصفاد الجهل بالدين، تحطم بتعلمه، الذي يفرضه الالتزام به، دينًا شاملاً لأبعاد الحياة كلها، تعلمًا مبينًا للواجب فيها، مما يدفع إلى التدخل، لصياغة الخطط الإنجازية، لأوامر الله في الواقع ،الذي تتكسر أغلال الجهل به أيضًا، بفركه ومعالجته، مما يكسب الإنسان فكرًا سُنَنِيًّا، رافضًا للتواكل، وقدرة على

---

(١) مواجهة الصليبيين في القرن السادس، ومواجهة التتر في القرن الثامن، وإخراج المستعمر في العصر الحديث، ونماذج إيران، والسودان، والجزائر، ولبنان، وانتفاضة شعب فلسطين حاضراً، والأمثلة كثيرة بفضل الله.

فهم حجم الأسباب، في بناء عمل الإنسان، في الأرض من المنظور العقيدي الإسلامي، والحركة ، انطلاقًا من بناء هذا الدين التصوري، الذي انفلتت معالمه من أذهان جل المسلمين، وهذه أمور مجتمعة، تتجاوز بالإنسان المسلم وَهْدة العجز، التي يستهلك قَطْعها كل طاقات الإنسان.

إن التصور هو الهيكل الذي ينشز عليه لحم السلوك، فيستوي بسوائه، أو ينحرف بانحرافه، ومن هنا أهمية وخطورة الجانب التصوري في آن.

رابعاً : السبب الفقهي

وذلك أن فقه المشاركة في أمتنا، لم يأخذ حظه الكافي، من التنظير والبسط، شأن فقه المجتمع، فتراثنا الفقهي، يشهد بأن الأول، كان الاهتمام به ضافيًا، على حساب الثاني، مما جعل البُعد التنظيمي للمشاركة، في هموم المجتمع، وتحمل مسؤولياته، يكون ضامرًا، الأمر الذي ترك هذه الممارسة، لأريحية الأفراد، دون أن يضبطها ضابط، من تنظيم وتقنين، يجعلها أكثر فاعلية واستمرارية.. وهذا أمر، وراءه أسباب متعددة، منها:

١ - أن المجتمع المسلم الأول، كان بسيطًا في تركيبته، فقد كان الناس قبل الإسلام، ينتظمون في أسرهم، وعشائرهم، وقبائلهم، وهي مؤسسات، تقوم على أعراف قديمة، مستقرة، مألوفة، تُرْضَع مع حليب الأمهات، وتُتَنَفس مع الهواء، فلا يستوي الفرد، إلا وقد تعلمها مع

المشي، والكلام، وانضبط لها، كما ينضبط لقوانين الجاذبية، والنمو، بل أكثر من هذا، فالذين انفلتوا من هذا النظام، معلومون، معروفون باسم الصعاليك، ولا يزال بعض أعيانهم، معروفين عند الأمة إلى الآن.

من هنا، فإن الضبط المباشر، الذي جاء في التشريع الإسلامي، لهذه المؤسسات، كان كافيًا، ولم يتم بالتالي، تلقي الإشارات الكثيرة، الموجودة، في الكتاب والسنة، والتي تؤصل، لبلورة المجتمع، والدولة، من مختلف التوجيهات، كالأمر بالشورى، والحض على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتكافل، والانتصار، على البغي.. .الخ، وهي توجيهات، تحتاج إلى هيئات، وقوانين، من أجل تنزيلها، على واقع الناس، والحفاظ عليها، بل وتنميتها، مما لم يكد، يفعل منه شيء، ذو بال.

٢ ـ الاعتماد على البعد العقيدي في النفوس، أزهد المسلمين في ضبط المؤسسات، وبلورة فقه خاص لها، يستنبط من الأحكام، التي تؤطرها، فاحتلت الثقة مكانًا، أكبر مما ينبغي، فلما ضعف الوازع العقيدي، وكثرت الكوارث، طفت الأزمة على السطح، وبحدة كبيرة، مما جعل المسلمين، يقبلون في العصر الحديث، كثيراً من القوانين، والتنظيمات، الدخيلة عليهم، لسد الفراغ، الذي تركه قصورهم، وقعودهم، عن الاجتهاد، لبلورة فقه المجتمع، ومختلف مؤسساته:

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهوى فصادف قلبًا خاليًا فَتَمَكَّنَا

٣ ـ شهد عهد الخلافة الراشدة، تطوراً كبيراً، في مؤسسات المجتمع الإسلامي، وفي فقهها، فكتاب عمر لأبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما، في القضاء -مثلاً- شاهد على ذلك، إذ فيه توجيهات إلى

الفهم، والاستشارة، كما فيه، دعم وتأصيل، للمؤسسة القضائية[1]، التي كانت مؤسسة مجتمعية محضة، مستقلة عن الدولة، قائمة بذاتها، ومَاتِحَة - مُسْتَقِية - مباشرة، من المرجعية العليا للأمة، أقصد القرآن والسنة، مضافًا إلى ذلك، اجتهاد القضاة وفهمهم، وهو ما أَلَحَّ عليه عمرُ رضي الله عنه، في كتابه إلى أبي موسى، السالف الذكر.

وقد شهد عمر، رضي الله عنه، أيضًا، اقتباس نظام الدواوين، كما شهد ضبط، مؤسسة الجند، وتنظيمها، فقد بدأ عمر فعلاً، ببلورة فقه خاص بها، من ذلك على سبيل المثال: جعله المدة القصوى، التي يبقاها الجندي، بعيداً عن أهله، هي أربعة أشهر، بناء على سؤالٍ سألَهُ ابْنَتَهُ أُمَّ المؤمنين حفصة، رضي الله عنها، عن صبر المرأة على زوجها، حيث أجابته، بأن المرأة، لا تصبر على زوجها، أكثر من أربعة أشهر.

غير أن انحرافًا كبيراً، في هذا المسار، يسجل بعد تقلص ظِلِّ الرُّشد، عن الدولة الإسلامية، فقد طغا على الانشغال بالمجتمع، وقضاياه، انشغال المسؤولين بإخماد الثورات، والتمكين للدولة القائمة، على أنقاض دولة، وتتبع بقايا الدولة المسقطة وجذورها، وبناء القصور والهيبة، وجمع الخراج، والسقوط في وِهَادِ، مشاريع، وهمية منحرفة، كسقوط دولة المأمون في فخ الاعتزال، والترويج له، وما أعقب ذلك من فتنة وجهود لإخمادها، ثم انشغال جهاز الدولة من الداخل بالمؤامرات، والمؤامرات المضادة، كمؤامرة البرامكة، والبويهيين، والسلاجقة، والانشغال، بفتنة قيام الدولة الفاطمية، في مصر.. وحين تمزقت الدولة العباسية، وترهلت الدولة الفاطمية، جاء دور المماليك، وهلم جرا.

---

(١) انظر، اعلام الموقعين لابن القيم، الجزء الأول والثاني، إلى ص ١٦٤.

نفس الشأن في المغرب، حيث كان الأمويون في الأندلس، إلى حين عـهـد المؤامـرات، فـالمؤامـرات المضـادة، بين ملوك الطوائف، ثم انطفـاء الجَذْوة، والدول المتعاقبة في المغرب الأقصى، وإفريقيا بشكل عام.

وباختـصـار، لم يكـن، هَمُّ المسؤولين، هو الاشـتـغال بالمجتمع، وإنما الاشتغال بالدولة، أو لنقل «بالذات»، وأُسلم المجتمعُ إلى نفسه، بخلاف الشأن، حين كـان الرشـد، معانقًا للدولة، فقـد كـان الاهتـمـام «بمجـال التشريع، وتأصيل الشريعة الإسلامية، وتنظيم الشورى، وإعلان قراراتها، والتخطيط، والإحصاء، والرقابة، ووضع السياسات، التي تراقب معاملات المجتمع، وتوجه المناشط الاقتصادية فيه»[1].

ليس هذا، يعني أن الدول الإسلامـيـة، كـان تاريخـهـا، مـجـردًا من الوضاءة والإشراق، وإن ركزنا هـهنا، على جانـب له صـلة بموضوعنا، وإلا فلا يخفى عطاء المسلمين، خلال التاريخ، وهذا أمر لا ينكر، وكان يمكن أن يكون أحسن، لولا ما ذكرنا، وأمور أخرى، لا يتسع المقام لذكرها.

وبعد عهد الخلافة الراشدة، أصبحت جهود الفقهاء، منصبة على تطوير فقه الأفراد وتفصيله، لأن الدولة انتـهـجت بعد الفترة الراشدة، نهـجًا تسلطيًا، غـيـر شـوري، مـحـيـدًا لعـمـوم المسلمين، عن تحـمـل مسؤولياتهم، في النصح والتسيير.. وإن التسيير، لعبء ينُوء بالعُصْبة أولي القوة... فبرز أنموذج للمواطن الصالح، بعيد كل البُعد عن الأنموذج القـرآني، فـأصلحُ الناس أنآهم، عن تحـمـل المسـؤوليـات!! وأبعـدهم عن

(١) د. حسن الترابي، مجلة قراءات سياسية، العدد الثالث، صيف ١٩٩٢، ص ٧.

الأمر، بالمعروف والنهي عن المنكر!! وبكلمة مختصرة: صار أصلح الناس، أكثرهم انحساراً، وإقبالاً على خويصة نفسه، وهذا تجانف صارخ عن قيم الإسلام، الذي جعل هذه الأمة، خير أمة أخرجت للناس، لأنها أمة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.. ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الصحيح: **«مَن رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**(١).

فلما ساد هذا الوضع، بعد مقاومة، أُطيح فيها برؤوس خيِّرة، من المؤمنين، كالحسين بن علي، رضي الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، وسعيد بن جُبير رحمه الله، وغيرهم... أسلم الأمراء، لأنفسهم، ولغرائزهم، وأهوائهم، أسلموا لسكرة السلطان، فتسلطوا على المسلمين، عامتهم وخاصتهم... فنشأ ما يسمى بفقهاء السلطان والبلاط، يفتون تحت الضغط والسَّورة، ضغط السلطان، وسَورة المال، لذا وجدنا علماء السلف، يهربون مما قد يؤدي إلى هذا الوضع، فالإمام مالك أبَىٰ وقال: «العِلم يؤتى إليه ولا يأتي»(٢). وقال لرسول المهدي، حين طلب منه، أن يرافقه: «أقرئ أميرَ المؤمنين السلام، وقل له: قال رسول الله ﷺ: **«والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»**(٣).

والإمام سفيان الثوري أبىٰ، وفَرَّ ليجاور الكعبة، وكان يلوم شُريكًا القاضي، على تَوَلِّيهِ القضاء، بل كفَّ عن مكالمته، وقال له قولته

---

(١) أخرجه مسلم، في كتاب الإيمان، حديث رقم ٧٨.

(٢) القاضي عياض، ترتيب المدارك، الجزء الثاني، ص ٢٤.

(٣) نفسه، ٢/١٠٠.

المشهورة: «والله، لا يَراني اللهُ أُكَلِّمُك، أو تترك ما أنت فيه»[1]، يقصد القضاء.

نشأ إذن فقه المجتمع ومؤسساته، بعيداً عن المجتمع، وانطلاقًا من الرأي الواحد، والفهم الواحد، فقه الدولة، وفهم الدولة، فلم يُبْرَد ويشحذ بالمناظرات والحوارات والرسائل، شأن فقه الأفراد «فقه العبادات بشكل عام»، إذ لم يكن، هَمُّ التنظير للحياة في المجتمع، والممارسات بشتى أنواعها، التي تجري فيه، وهَمُّ استنباط الأحكام الخاصة بذلك، هَمُّ المجتمع، وفقهائه، بل بقي هَمُّ الدولة ،وفقهائها فقط.

وهذا سبب هام، من أسباب فقر هذا الفقه، وضموره، وقلة مصداقية ما هو موجود منه، مما ينبغي، أن يُتجاوز، ويستدرك، وإنني لأميل إلى الاعتقاد بأن هذا التجاوز، وهذا الاستدراك، لا يمكن إطلاقًا، أن يتم خارج المعترك السياسي، وخارج إطار تحمل أمانات، ومسؤوليات، حقيقية -قَلَّت أم كَثُرَت- من مسؤوليات الأمة، من قِبل مؤمنين بهذا الدين، معتقدين بصلاحية شريعته، لتأطير حياة الناس، في كل مصر وعصر، بل أكثر من ذلك معتقدين، بوجوب تأطير حياة الناس بشريعة الله، وإلا فلن تعدو الاجتهادات، أن تكون نظرية علوية، مطلقة، متجانفة عن الإشكالات الحقيقية، الموجودة في المجتمعات المشخصة والعينية، التي تحتاج إلى اجتهادات خاصة بها.. وهي اجتهادات لا غرو، سوف تكون عقب سِيَر في الأرض، ونظر في تجارب الآخرين، واستفادة منها.

---

(١) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ، ٢٨٦/٤ - ٢٨٧.
هذا ولم يمت شريك رحمه الله ، حتى عزل من القضاء، من قبل المهدي العباسي، لأنه كان يقف مواقف حق وعدل.. انظر تاريخ بغداد ، ٢٩٢/٤.

خامساً : السبب الواقعي

إن أثر الواقع، في شل حركة المسلمين، والحيلولة بينهم، وبين ارتياد آفاق عباد الله، بتبني هموم أمتهم، كما مر بيانه، أمر لا يخفى، وسوف نتناول، أثر الواقع، في تجميد فعالية المسلمين بهذا الخصوص، من جانبين: جانب له صلة، بممارسات الاستبداد في الأمة، في مختلف مستوياتها، وآثار ذلك، وجانب له علاقة، بفُرقة الشعوب، وآثار ذلك، وهما على كل حال جانبان، ينبني الواحد منهما على الآخر.

الأول : الاستبداد

الاستبداد، نتيجة، وسبب، في آن واحد، فالانحراف عن جَادَّة العدل، وتخلي المسلمين عن عزتهم، وتكافلهم، وتعاضدهم، يُورثه، وهو يتسبب في عرقلة الأمة، عن السعي نحو الانعتاق، وطلب المعالي، والانطلاق، إذ يحيلها أمة متشاكسة، يثقل بعضها بعضاً، عن كل محاولة، لارتياد آفاق العزة، والسؤدد، فـ «الاستبداد، داء الأمة الدفين، كما سماه عبد الرحمن الكواكبي، منذ قرن، حين كتب كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، إذ هو داء يَحْرِم الأمة الإفادة ،من مختلف قدراتها، وطاقاتها، ويختزلها في فرد، أو في مجموعة، عوض أن تكون خلية نابضة بالحياة، يتعاون، ويتكافل، كل أفرادها، ويعرف كل منهم

وظيفته، ويقوم بها، ويتحمل مسؤوليته، وينصح لأمته، ما وسعه النصح.. فالأمة الناجحة، هي التي تعرف كيف تفيد، من كل إمكاناتها، وتوفق إلى إفراز آليات، تنظم ذلك وتضبطه.

الاستبداد هو إلغاء الآخر، وتقليص كيانه، في ذات، لا تملك إلا أن تطيع، وتتبع: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (غافر:٢٩)، مما يحبس دفق الشهود الحضاري، عن الوصول، إلى كل أوصال الأمة، ويرفع عن الآراء، نعمة التشاحذ والتبارد والتهاذب، وهي بوتقة تنصهر فيها الآراء، ليبرز إبريزها، ويُنفى زَبَدُها، فتتسم الحياة بالركود والجمود، تبعًا لذلك، لأن الإنسان يجرد من أهم خصائص إنسانيته، وهي المسؤولية، ويتستحيل كائنًا تنفيذيًا ذليلاً، شأن الأنعام.

المستبد يرى الآخرين أقل منه شأنًا، ودرجة، ووعيًا، إما بدافع سيادة وتأله، أو بدافع غيرة وأبوة، النتيجة على كل حال واحدة، إذ ينتج عن الدافعين معًا، نوع إحساس بالاستغناء، عن الآخرين، ونصحهم، ومشورتهم، وتجاهل لإرادتهم، وطموحهم، وهذا شعور، يشكل المدخل الأوسع إلى الطغيان، يقول الله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق:٦-٧).

قد يكون هدف المستبد في منطقة نبيلاً، ولكنه يفقد نبله بالممارسة القاتلة، التي تصاحب عملية تحقيقه، كمن يقتل مريضه وهو يغالبه ليسقيه الدواء، وهذه أبهى صور الاستبداد!!

الاستبداد اليوم، داء ينخر كِيان أمتنا، في كل المستويات، قد

امتزجت به كل ذرة من ذراتها، فما من خيط من خيوط شبكة العلاقات الاجتماعية -على حد تعبير ابن نبي، رحمه الله- إلا وهو منصبغ بالاستبداد، الزوج مع زوجته، والأب والأم مع أبنائهما، والذكور مع الإناث، والكبير مع الصغير، والغني مع الفقير، والمدير المستخدِم مع الأجير المستخدَم، والحاكم مع المحكوم، والرئيس مع المرؤوس، والقديم مع الجديد، والقوي مع الضعيف، والشريف مع المتواضع النسب، والمعلم مع المتعلم.. مما لو ذهبنا نتتبع تفصيلاته، فلن نفرغ من قريب.

ومن هنا كان حصر الاستبداد، في الحكام فقط، خطأ كبيراً في التشخيص، لأنه ليس موجوداً فقط، في حكوماتنا، بمختلف وزاراتها، او في الأجهزة القضائية، والأخرى التنفيذية، بل هو موجود في معاملنا، ومتاجرنا، ومراكزنا الثقافية، وشوارعنا، والأدهى، والأمر، من هذا كله، الاستبداد موجود -وكما قلنا- في بيوتنا! وإنما الاستبداد في الحكام، يكون له بالغ الأثر، لأنهم محل قدوة من جهة، ولأنهم يملكون وسائل ممارسة الاستبداد، وإخراجه من مكامن النفوس، إلى مظاهر الواقع، من جهة ثانية، وإلا فالاستبداد، لا يمضي في أمة، إلا إذا تحول إلى قيمة مجتمعية، وكان في النفوس قابلية له، من فسق ودنية وغيرهما، قال تعالى حكاية عن فرعون مع قومه: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٤).

وقد راجت في الأمة مفاهيم، أحدثت القابلية للاستبداد، في أذهان المسلمين، فاستتب هذا الداء بالتالي، في واقعنا، بحيث «وجد لديهم

تراث فكري، وثقافي، غير قليل، يؤصل لهذه الانحرافات، ويحدد أو يصادر الحريات... ولعل بعض هذا التراث، ما أدرج تحت «سد الذرائع»، «والأخذ بالأحوط»، فلطالما أساء الناس فَهْم هاتين القاعدتين، أو الأصلين، وما أكثر ما أساء فقهاء الطغاة بخاصة، استخدامهما، بعد أن نقلوهما، من إطارهما، وميدانهما الفقهي الخاص»[1]، إلى المجال الحياتي الأوسع، ليبركوا بكَلْكَل قوة الطغاة، على عقول المسلمين، فيمنعوها من أن تبدع، وعلى ألسنتهم، فيحبسوها من أن تجهر بالحق، ويوثقوا أيديهم، من أن تجاهد.

«ومن منطلق: «سد ذرائع الفتنة»، أو «سد ذرائع الفُرقة»، منحت الشرعية لإمامة المتغلب، وأصبحت إمامة أهل الجور، والجبر، مشروعة أيضًا، وأحكامهم نافذة، منذ وقت مبكر في تاريخنا، لتتهيأ الأمة، لقبول أحكام انقلابات العساكر والشُرَط... ولم ينكر إلا القليل من صالح العلماء، وبأصوات خافتة، غير مسموعة -إلا نادراً- هذه الأحوال..

وتحت سيف وسلطان «سد الذرائع»، و«الأخذ بالأحوط»، عاشت أمتنا، في ظل قوانين طارئة دائمة، فعطِّلت قواعد نظامها السياسي، منذ الانقلاب، على الخلافة الراشدة... ولم يَسْلَم النظام القضائي، من محاولات الطغاة، إساءة استعماله، والانحراف به... الاستبداد، والظلم، والطغيان، الذي مارسه، هؤلاء المتغلبون، قديمًا وحديثًا، قد فرَّق كلمة

---

(١) الدكتور طه جابر العلواني ، من مقدمته لكتاب: دور حري الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، للدكتور عبد المجيد النجار، ص١٣.

الأمة، ومَزَّق وحدتها، وحَوَّلها إلى فِرق، يتقاسمها الطغاة، ليضربوا بعضها ببعض، وهكذا أدى الاستبداد، وحرمان الناس من حق الرأي، والتفكير، والتعبير عنه، إلى هدم سائر مقومات الأمة، والقضاء عليها»[1].

هذا من الناحية السياسية، ومن الناحية العلمية الثقافية، فقد راجت أيضًا، مفاهيم أدت إلى شيوع الاستبداد العلمي، ولندع أبا الفرج، عبد الرحمن بن الجوزي، يتحدث عنها، حديث مستبصر، إذ يقول رحمه الله: «وقد لَبَّس إبليسُ، على أقوام، من المحكمين، في العلم والعمل... فحَسَّن لهم الكِبْرَ بالعِلْم، والحَسَد للنظير، والرياء بطلب الرئاسة، فتارة يريهم، أن هذا كالحق الواجب لهم، وتارة يقوي، حُبَّ ذلك عندهم...

وقد يدخل إبليس على هؤلاء، بشبهة ظريفة، فيقول: طلبكم للرفعة ليس بتكبر، لأنكم نواب الشرع، فإنكم تطلبون إعزاز الدين، ودحض أهل البدع، وإطلاقكم اللسان في الحساد، غضب للشرع، إذ الحساد، قد ذموا من قام به... وكشف هذا التلبيس، أنه لو تكبر متكبر، على غيرهم، من جنسهم، وصعد في المجلس فوقه، أو قال حاسد عنه شيئًا، لم يغضب ذلك العالِم لهذا، كغضبه لنفسه، وإن كان المذكور من «نواب الشرع»، فعلم، أنه إنما يغضب لنفسه لا للعلم»[2].

---

(١) انظر المرجع السابق، ص١٨. قال ابن الجوزي: «وقد جنح أقوام من منحرفي العلماء، فخالطوا أمراء الجور، دون الإنكار عليهم، فلبَّسوا على عامة المسلمين، فقالوا: لا بأس بهذا الأمير ولا بماله، ولا بأفعاله، فإن فلانًا الفقيه، لا يبرح عنده»، تلبيس إبليس، ص١٢١.

(٢) تلبيس إبليس، ص١٢٩-١٣٠.

ثم قال ابن الجوزي: «وعلاج هذا -لمن وفق- إدمان النظر، في إثم الكِبْر، والحسد، والرياء، وإعلام النفس، أن العلم لا يدفع شر هذه المكتسبات، بل يضاعف عذابها، بتضاعف الحجة بها، ومن نظر في سير السلف، من العلماء العاملين، استقل نفسه، فلم يتكبر، ومن عَرفَ الله لم يُراء، ومن لاحظ جريان أقداره على مقتضى إرادته، لم يحسد»[1].. فنشأت بناء على ما مر، فِرَقٌ، ينتصر كل منها لرأيه، ويهاجم المخالفين، بل، وقد يحض على قتلهم، كما حدث في فتنة خلق القرآن.. وبما أن عموم الناس، تبع لحكامهم، وعلمائهم، فقد تفرَّقت الأمة سياسيًا، وعلميًا، من جراء أخلاقيات الحكام والعلماء، السابقة الذكر.

وقد التفت مالك بن نبي -رحمه الله- إلى هذه المسألة التفاتة لوذعية، فنص ضمن كتابه: (ميلاد مجتمع)، في فصل سمَّاه: «المرض الاجتماعي»، على كون تفشي الاستبداد، نذيراً بهلاك الأمم، وذهاب ريحها، فقال: «قبل أن يتحلل المجتمع، تحللاً كليًا، يحتل المرض جسده الاجتماعي، في هيئة انفصالات، في شبكة علاقاته الاجتماعية... وهذه هي مرحلة التحلل البطيء، الذي يسري في الجسد الاجتماعي، بيد أن جميع أسباب هذا التحلل، كامنة في شبكة العلاقات، فلقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسوراً ناميًا، بينما شبكة علاقاته مريضة، ويتجلى هذا المرض الاجتماعي، في العلاقات بين الأفراد، وأكبر دليل على وجوده، يتمثل في ما يصيب «الأنا» عند الفرد، من «تضخم»، ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي، لصالح الفردية، عندما يختفي

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٠.

«الشخص»، أو خاصة عندما يسترد «الفرد» استقلاله، وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي.

فالعلاقات الاجتماعية، تكون فاسدة، حينما تصاب الذوات بالتضخم، فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبًا، أو مستحيلاً، إذ يدور النقاش حينئذ، لا لإيجاد حل للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين.

في حالة الصحة، يكون تناول المشكلات، من أجل علاجها هي، أما في الحالة المَرَضِيَة، فإن تناولها، يصبح فرصة لتورم «الذات»، وانتفاشها، وحينئذ يكون حلها مستحيلاً، لا لفقر في الأفكار، أو الأشياء، ولكن لأن شبكة العلاقات، لم تعد أمورها تجري على طبيعتها»[1].

وقد أثبت التاريخ، أن الذوات، لا تصاب بالتضخم، في المجتمعات، فيشيع الاستبداد، إلا حين تغفل عن المشروع، الذي نشأت من أجل تحقيقه، أو تفقد الإيمان به، ومعلوم أن عجينة المجتمعات الأصلية، وتركيبتها، تكون استجابة لمقتضيات، تحقيق المشروع المنطلق، وكل ابتعاد عن هذه الاستجابة، نذير بانتهاء المجتمعات المعنية.. فحين فقد السوفيات الإيمان بمشروعهم، انحسر مد السعي، من أجل تحقيقه، وترهلت شبكة العلاقات الاجتماعية، وانتصرت الفردية، فذهبت ريح المجتمع السوفياتي.

---

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص٤٣.

هذا نموذج فقدان الإيمان، وأما نموذج الغفلة، فمتمثل في المجتمع الإسلامي، فقد تضخمت الذوات، وتَفَشَّىٰ الاستبداد، حين تمت الغفلة عن المشروع، الذي وُلِدَ المجتمعُ الإسلاميُ، من أجل تحقيقه.

حين الإيمان بالمشروع، والالتحام به، تذوب الذوات في بعضها، ويصبح الإنسان شخصًا له شخوص حضاري، ولا يبقى مجرد فرد، له متطلباته الجثمانية، فحسب، فينصهر في المجتمع، دون أن تضيع خصوصياته، ولا حقوقه، قال رسول الله ﷺ: «**المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يَشُدُّ بعضُهُ بَعضًا**، وشَبَّكَ بين أصابعه»[1]، فتلتحم الذوات ببعضها، وتعمل، بتعاضد، من أجل رفع بناء المشروع الحضاري الإسلامي في الأرض، ليكون الدين كله لله، لأن مفهوم التضحية، يولد بعد أن يتضح القصد، وهو مرضاة الله، وتُعلَمُ حقيقة هذه الحياة، وأنها مجرد مَعْبَر إلى الآخرة، فهي لا تعدو كونها مجال امتحان وابتلاء: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك: ٢)، وأن الدار الآخرة، لهي الحيوان، لو كانوا يعلمون، وهي دار لا تكون، إلا للذين لايستبدون، ولا تتورم، أو تتضخم ذواتهم، على حساب الآخرين، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص: ٨٣).

---

(١) رواه البخاري، في كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، حديث رقم٢٤٤٦. ومسلم في كتاب البر، حديث رقم ٦٥.

ولخطورة هذا الداء، على حياة الأمم، فقد حاربه الإسلام، فضلاً عن كون المنهج، الذي يبني به المجتمعات، رافضًا في أساسه للاستبداد والتسلط.. وهذه الحرب، كانت من زاويتين: زاوية التأصيل العقيدي، وزاوية التشريع العملي، قصد إعطاء الأمة كرامتها.

أما من زاوية التأصيل العقيدي، فقد حمل القرآن الكريم، على الطغاة والمستبدين، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٥)، وقال سبحانه: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (إبراهيم: ١٥)، وحمل على الأعوان المباشرين، من كبارٍ مثل هامان وقارون، أو صغارٍ مثل جنود فرعون، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ (القصص: ٨)، وقال عز وجل: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص: ٤٠).

ومن ناحية ثالثة، حمل على الشعوب، التي تسلم قيادها للطغاة، دون أن تسألهم لِمَ؟ أو كيف؟ بله أن تقول: لا، بملء فيها، فقد ذم عز وجل، قوم نوح على لسانه، بقوله: ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (نوح: ٢١)، قال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية: «قال المفسرون: المعنى أن الأتباع والفقراء، اتبعوا رأي الرؤساء والكبراء»[1].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ٨/٣٧٣.

وذم سبحانه قوم هود بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (هود: ٥٩-٦٠)، وذم قوم فرعون، فقال عز من قائل: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤).

وعرض لنا القرآن صوراً جمّة من مشاهد الآخرة، وفيها يتلاوم السادة والكبراء، والمُضِلُّون، وأتباعهم المُضَلَّلون، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، ويحاول كل فريق، أن يلقي بالتبعات على الآخر، ولكن الله يحكم على الجميع، بأنهم من أهل النار: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ (الأحزاب: ٦٦-٦٨)، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٦-١٦٧)[١].

وأما من زاوية التشريع العملي، فسنوضح ذلك عبر نقاط ثلاث:

---

(١) انظر الدكتور يوسف القرضاوي، ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده، ص١٣١-١٣٢.

النقطة الأولى: جاء في كتاب الله، وسنة مصطفاه ﷺ، البيان، بأن شرع الله، هو الأعلى، وأنه لا طاعة لمخلوق، في معصية الخالق، كما جاء فيهما البيان، بوجوب الحكم، بما أنزل الله، فقال عز من قائل: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤)، وقال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (المائدة:٤٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧)، مما يجعل الأمة، حكامًا ومحكومين، ملزمة بأن تراقب سريان هذه الأحكام فيها.. وجبت الإشارة هنا، إلى كون الأمة وحدة، وأنها توكل بعض أبنائها، ليشرفوا على تسيير شؤونها، محتفظة بحق عزلهم، متى تجانفوا عن شرع الله، أو لم تبق كفاءاتهم مواكبة، لحاجيات الأمة، ومقتضيات المرحلة التي تعبرها.

أمَّا الفصل الذي درج عليه الناس، بين الحكام والمحكومين، وكأنهما جسمان منفصلان، فليس بأصيل، وإنما هو دخيل من الحضارات الأخرى، كالفرعونية والساسانية، والهندية، وغيرها، والتي كان الحكام فيها، يعتبرون آلهة، فهم جسم منفصل، متميز عن أممهم، التي يحكمونها، أو الحضارتين اليونانية والرومانية، التي كان الحكام فيها سادة، والرعية عبيداً، مما يفضي، إلى نفس نتيجة الانفصال والتمايز، بين الحكام والمحكومين.. أما في التصور الإسلامي، فالأمة وحدة، وهي تنتقي من أبنائها أكفأهم، وأنسبهم، لسياسة أمورها، ولكنه يبقى من أبناء الأمة، الأصل فيه، أن لا ينفصل، أو يتميز، بمسكن، أو بلباس، أو غيره..

كذلك كان رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدون من بعده، والشواهد على ذلك، أشهر من أن نطيل بسوقها هنا، وإنما رخص أمير المؤمنين عمر لمعاوية، رضي الله عنهما، في تحسين لباسه، لأنه كان مُتَاخِمًا للروم، وهم أهل مظاهر، فإعزاز الإسلام -حسب اجتهاد معاوية- يقتضي اهتمامه بالملبس، ولكن حكام الأمة، غلوا بعد ذلك في هذا الأمر، غلواً كبيراً، وقلبوها ساسانية، فتميزوا عن الناس، بكل أنواع التميز، مما أحدث هذه الهوة المقيتة، بين الشعوب والحكام، وهي هوة طارئة، لا أصل لها في التصور الإسلامي[1]، وهو ما تفَطَّن له عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فشرع بردم هذه الهوة، إلا أن أجله، وافاه قبل أن يبلغ الغاية.

إن الحكم في الإسلام، ليس مغنمًا، وإنما هو تكليف إضافي، وقد يكون ندامة ومغرماً في حالة التفريط.

والواجب اليوم، تخليص تراثنا الفقهي التأصيلي، من عُقدة الانفصام النكد هذه، بين الأمة، ومن وكلتهم، ليسوسوا أمرها، فهم أبناء الأمة، وهي التي تنصبهم، ولها الحق في عزلهم، متى رجح ذلك شرعًا.. فالكلام عن الحكام والمحكومين، ينبغي أن يكون كلامًا عن أجزاء جسم واحد، ذي هموم واحدة، لكلٍ فيه وظائفه، وليس كلامًا عن أجسام، متنابذة، منفصلة، لكل منها همومه وأهدافه.

---

(١) وهذا لا ينفي اتخاذ إجراءات الحماية والحفظ اللازمين، دون تضييع روح المخالطة، أو تعريض حياة المسؤولين للخطر.

النقطة الثانية: اتفق المسلمون، على أن الإمامة عقد، وأن الشورىٰ، أساس المشروعية.. قال القرطبي: «كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآراء كثير، ولم يكن يشاورهم في الأحكام، لأنها مُنَزلة من عند الله، على جميع الأقسام، من الفرض، والندب، والمكروه، والحرام.. فأما الصحابة فكانوا يتشاورون في الأحكام، ويستنبطونها من الكتاب والسنة، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة، وتشاوروا في أهل الرِّدَّة، وتشاورا في الجَد وميراثه، وفي حد الخمر وعدده، وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب... وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤكم سُمَحَاءَكم، وأمرُكم شورى بينكم، فَظَهْر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم أشرارَكم، وأغنياؤكم بخلاءَكم، وأمورُكم إلى نسائكم، فبَطْنُ الأرض خير لكم من ظَهْرِها**» قال: حديث غريب[1].

قال ابن عطية: «ومَدحَ تعالى القوم، الذين أَمْرُهُم شورىٰ بينهم، لأن في ذلك، اجتماعَ الكلمة، والتحابَّ، واتصالَ الأيدي، والتعاضدَ على الخير، وفي الحديث: «**ما تشاور قوم إلا هُدوا لأحسن ما بحضرتهم**»[2]، وقال أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨).. والشورى من قواعد الشريعة، وعزائم

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٦/٢٥-٢٦.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، ١٤/٢٢٨.

الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين، فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه»[١]. فذهب رحمه الله إلى إيجاب الشورى، وإيجاب عزل من يتركها من الحكام، ونقل عدم الخلاف في ذلك.

وقال الزّجاج في تفسير قوله تعالى: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾: «المعنى: أنهم لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه»[٢].

فالشورى تعصم الأمة، من أن يظهر فيها مستبدون، وتعصمها من الزيغ، والانحراف عن الجادة، فعن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة، فإن الله عز وجل لن يجمع أمتي إلا على هدى**»[٣]، ومقتضى ما سبق، أن الحاكم إذا أخلّ بموجب العقد، الذي بينه وبين أمته، وأصرّ على غَيِّه، وجب عزله.

النقطة الثالثة: واجب المراقبة والتقويم، وهو واجب، ملقى على عاتق الأمة، فقد أوجب عليها الباري، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومراقبة الحكام، وتقويمهم.. ولن أسهب بذكر الآيات والأحاديث، التي تحث على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فبحسبنا أن نستدل لواجب الأمة في مراقبة الحكام بما يلي:

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ٣/٢٨٠-٢٨١.
(٢) نقله ابن الجوزي، في، «زاد المسير في علم التفسير» ، ٧/٢٩١.
(٣) رواه أحمد في مسنده، ٥/١٤٥.

١- أخرج مسلم في كتاب الإيمان، من حديث عبدا لله بن مسعود، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها يخلف بعدها خُلُوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خَرْدَل»**(١).

٢- أخرج أبو داود، والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **«أفضل الجهاد، كلمة حق عند سلطان جائر»**(٢).

٣- لقد وَعَىٰ خلفاء رسول الله ﷺ، هذه المسألة وعيًا عميقًا.. وأكتفي ههنا بالاستشهاد بمواقف وكلمات لكلٍ من الراشدَيْن أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، مما قد مر معنا بعضه:

(أ) يصدع أبو بكر، رضي الله عنه، في أول خطبة، بعد أن ولاّه المسلمون الخلافةَ، بالكلمات المشرقات الآتيات: «يا أيها الناس! إني قد وُليت عليكم، ولست بخيركم، إن أحسنتُ، فاعينوني، وأن أساتُ، فقوِّموني.. الصدق أمانة، والكذب خيانة.. أطيعوني ما أطعت اللّهَ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، حديث رقم ٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، حديث رقم ٤٣٤٤، والترمذي في سننه، حديث رقم ٢١٧٤.

ورسولَه، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَه، فلا طاعة لي عليكم»[1]، فيرسخ رضي الله عنه بهذه الكلمات، حقيقة خطيرة في العقل الجمعي للأمة، وفي وجدانها، وهي، أن المسؤول عن الأمة، ليس بخيرها، وإنما هو واحد من أبنائها -كما مر بيانه آنفًا- وأن طاعته، إنما تندرج تحت طاعته هو، لله ورسوله، وانضباطه، لتعاليم هذا الدين، إذ أبناء الأمة جميعًا، أمناء على مشروع أن يصبح الناس لربهم عابدين، وهم متعاونون عليه، ومن هنا كان الحكم مسؤولية مشتركة، بين أبناء الأمة جميعًا.

إن أبا بكر، رضي الله عنه، يربط بهذه الكلمات، الأمور بأصولها، فيربط الدولة في الإسلام، بوظيفتها العقيدية، وهي «وظيفة أصلية، سواء من حيث إطارها القيمي، أو مبادئها، وأشكالها النظامية، أو ممارساتها الواقعية العملية.. تؤكد ذلك الأوامر المنزلة من جانب، والخبرة التاريخية، من جانب آخر، وأن هذه الوظيفة، هي الوظيفة المحورية، والحاكمة، لباقي وظائف الدولة الإسلامية، وبالتالي، يترتب على إنجازها بفاعلية، فاعلية قيامها بباقي وظائفها»[2].

ومن هنا ،فإن أبا بكر رضي الله عنه، قد وضع الأمة، على جادة الطريق، فيما يخص هذه القضية، حين حملها مسؤوليتها في مراقبته، ونص على أن طاعتها له، مرتبطة بطاعته هو، لله ولرسوله ﷺ: «إن

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/٣٠١.
(٢) حامد عبد المجيد القويسي، الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية، ص٢٢.

أحسنتُ، فأعينوني، وإن أسأتُ، فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، أطيعوني، ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَهُ، فلا طاعة لي عليكم».. «إنه رضي الله عنه، يريد أن يكون الحكم معادلة متكافئة، بين الحاكم والمحكوم، الطرفان يتحملان مسؤوليتهما، ويشاركان فيها بالفعل، والاجتهاد، والنقد، والرقابة الدائمة، وهو بالتالي، يريد أن ينمي الحس النقدي، ومسؤولية الرقابة، في نفوس أبناء أمته، فليس إلا في فترات الاستيلاب السياسي، أمة لا تَنْقُد حكامها، أو تراقبهم، ولا تقول: "لا"، حيث يجب أن تقال...»[1].

ب- وهذا عمر، رضي الله عنه، يخطب يومًا، على منبر رسول الله ﷺ، في المسجد النبوي الشريف، فيقول: «يا معشر المسلمين! ماذا تقولون، لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا؟ (وأمال رأسَه)، فقام إليه رجل، فقال: أجل، كنا نقول بالسيف هكذا (وأشار إلى القطع)، فقال عمر: أإياي تعني بقولك؟! قال الرجل: نعم، إياك أعني بقولي، فقال عمر: الحمد لله، الذي جعل في رعيتي، من يُقَوِّمُني، إذا اعْوَجَجْت»[2].

وقال حذيفة رضي الله عنه: «دخلتُ على عُمر يومًا، فرأيته مهمومًا حزينًا، فقلتُ له: ما يهمك يا أمير المؤمنين؟ قال: إني أخاف، أن أقع في منكر، فلا ينهاني أحد منكم تعظيمًا.. قال حذيفة: والله لو رأيناك،

---

(١) الدكتور عماد الدين خليل، حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي، ص١٦.
(٢) انظر كتاب: سيرة عمر، لعبد الرحمن بن الجوزي.

خرجتَ عن الحق، لنهيناك.. فسُرَّ عُمر وقال: الحمد لله، الذي جعل لي أصحابًا، يُقَوِّمونني، إذا اعوججت»[١].

وعن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، قال: «كان بين عمر، وبين رجل كلام في شيء، فقال الرجل: اتق الله، فقال أحد الجالسين: أتقول لأمير المؤمنين: اتق الله؟! فردَّ عمر: دعه، فليقلها لي، فلا خير فيكم، إذا لم تقولوها، ولا خير فينا، إذا لم نقبلها»[٢].

لقد سهر عمر، رضي الله عنه، على توفير المناخ الملائم، لرقابة الأمة، على حكامها، «فبينما قطعت فيها، أشد الجماعات ديمقراطية، خطوة واحدة، قطع هو فيها، خطوتين، إذ أنه لم يكتف، بإتاحة المجال الواسع، لأبناء أمته، أن يعترضوا، وإنما حثهم حثًا، ودفعهم دفعًا، إلى الاعتراض، وكان يهمه، ويشغل باله، أن تفقد أمته، إحساسها العميق بالحرية، وأن لا تتشرب دماؤها، أحاسيس النقد والرفض، حيث يتحتم، أن يُنقد عمل ما، ويُرفض، إذا اقتضى الأمر»[٣].

يتبين لنا مما سلف، كيف أن الأمة، قد حَصَّنَها بَارِيها، ومُخْرِجُها للناس، من داء الاستبداد، بحصون متعددة، ولكنها، قد ذَهِلَت عنها، فشأنها في ذلك، كشأن من يلحس الثَّرَىٰ عَطَشًا، والأنهار تجري من حوله، وإنه ليسير، أن نرمي الأمة بالغفلة، والجهل، والخمول، والجمود،

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفسه.

(٣) الدكتور عماد الدين خليل، حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي، ص٢٢-٢٣.

وسائر أوصاف القدح، غير أن القَدْحَ، والسِّبَابَ، لم يكونا في يوم من الأيام، ليكفيا مؤنة العمل والكد، لتغيير ما بالأمة، من مذلة، ومهانة، إلى واقع العزة، والسؤدد، والشهادة على العالمين.

وإن الطريق ليبدأ، بتجديد عقيدة الأمة، وتجديد إيمانها، وضبط تصوراتها ومفاهيمها، وتصحيح أنواع العلاقات السائدة، بين أفرادها، لينصلح العمل، تبعًا لذلك، فالتصورات أصل، والسلوكات فرع.. وإنه لورْشٌ حضاريٌ لاحِبٌ، يحتاج إلى كفاءات متعددة ومكوِّنة، وإلى تخطيط محكم، وعمل تنفيذي متواصل، ومتابعة متعقبة، وتقويم مستمر.. والله المستعان.

الثاني: الفُرْقة

الأمة اليوم أجزاء ومُزع، تمزقها الحدود، والفوارق المصطنعة، والمشاكل المختلفة، وإنها لأخاديد يُحرَس على تعميقها، يومًا بعد يوم، وتوضع البرامج والتخطيطات، وترصد أجهزة التنفيذ والمتابعة، من أجل تحقيق هذا التعميق، وما اتفاقية (سايكس بيكو) وما تلاها، منا ببعيد.

إن واقع التفتيت، الذي تعيشه الأمة، لم يحل بساحتنا اتفاقًا، وإنما هو واقع، تم التفكير في إحلاله، واتخذت التدابير اللازمة لذلك، ومنذ وقت مبكر، يمكن إرجاعه، إلى القرن السادس عشر، حين بدأ البرتغالي (هنري الملاح)، أبحاثه في قلعته الشهيرة، عن كيفية أكل الكتف الإسلامية، ثم تلت ذلك اتفاقيات (طورتوزلاس)، بين البرتغال، وإسبانيا، من أجل

الإحاطة بالعالم الإسلامي، قصد إضعافه، وتجريده من ميزة التفرد، باحتواء الطريق التجارية، الواصلة بين المشرق والمغرب، بتجاوزه، والمرور على طريق، رأس الرجاء الصالح.. ثم تلت ذلك الاتفاقيات المتعددة، بين روسيا، وفرنسا، والنمسا، وإنجلترا... إلى أن جاء الاستعمار الحديث، الذي تَمَكَّنَ، بشكل شبه كلي، من العالم الإسلامي، فقسمه حسبما يراه ضامناً لمصالحه، وأقام وسائل استمرار ذلك.

ولئن كان مالك بن نبي -رحمه الله- قد تحدث عن القابلية للاستعمار، فإنه يحق لنا، بصدد تحليلنا لظاهرة الفُرقة، في الأمة الإسلامية، أن نتحدث عن القابلية للفُرقة.. فكما للفُرقة في أمتنا، أسباب موضوعية، فإن لها -وهي الأسبق- أسباباً ذاتية، وهي التي يملكنا السعي إلى رفعها ابتداء.

إن ما حدث في العالم الإسلامي، من تمزيع، وتفريق، من لدن الغرب، لم يكن سوى تشمير لخميرة الفُرقة، التي وجدت في الأمة، من جراء، ترهل شبكة العلاقات الاجتماعية، التي كان سداها ،ولُحُمتها، التوجيهات، والأخلاق، والقيم الإسلامية.

وفي الصفحات الآتية، سوف نحاول وضع اليد، على بعض أسباب الفُرقة في أمتنا، مكتفين في ذلك بلفت النظر إليها، مع بعض تفصيل، لا يتسع المقام لأكثر منه، ولانحتاج ههنا، إلى التذكير، بأن أمة تنهش كيانها الفُرقة، يستحيل فيها، تبني أفرادها، ومؤسساتها، هموم بعضهم بعضًا، بالشكل المطلوب.

أسـباب الفُرقـة :

السبب الأول: اضمحلال الوعي بتوالي الأجيال:

إن توالي الأجيال، بقدر ما يكون مدد قوة، ومصدر تجدد للشعوب، فإنه إن لم يُحسَن التصرف معه، يمكن ان يتحول إلى مصدر اضمحلال، وذهاب لريح المجتمعات.. فالأفكار تكون واضحة، في أذهان الأجيال المؤسِّسة، ويكون هنا دفق حضاري، ولكن إن لم تحسن هذه الأجيال المؤسِّسة، نقل نُسغ الحضارة، وإنشاء محيط ثقافي، يُمَكِّن من انتقال الأفكار والسجايا، بوضوح، إلى الأجيال التالية، حتى تصير رسالية، بنفس القدر، الذي كان عليه سلفها، فإن الحضارة تضمحل، وشوكة أهلها تُخْضَد، وهذا هو الأمر، الذي برز في تاريخ الإسلام جليًا، حيث رأينا عالمنا الإسلامي، يترنح في مهاوي التخلف، وهو يملك أغنى المكتبات، وأكثر الأفكار نورانية، غير أن هذه المكتبات، وهذه الأفكار، لم تنتقل إلى وجود المسلمين الذهني، بل بقيت على رفوف مكتباتهم، مما حال دون توظيفها في الواقع العيني، وهذا هو المعنى، الذي جاءت إليه الإشارة، في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ (مريم: ٥٩).

قال ابن خلدون في هذا المعنى: «باني المجد، عَالِمٌ بما عاناه في بنائه، ومحافظ على الخلال، التي هي أسباب كونه وبقائه.. وابْنُه من بعده، مباشر لأبيه، فقد سمع منه ذلك، وأخذه عنه، إلا أنه مقصر في ذلك، تقصير السامع بالشيء، عن المُعَانِي له، ثم إذا جاء الثالث، كان حظه الاقتفاء، والتقليد خاصة، فقصر عن الثاني، تقصير المقلد، عن المجتهد،

ثم إذا جاء الرابع، قصر عن طريقتهم جملة، وأضاع الخلال الحافظة، لبناء مجدهم، واحتقرها، وتوهم أن ذلك البنيان، لم يكن بمعاناة، ولاتكلف، وإنما هو أمر وجب لهم، منذ أول النَّشأة، لمجرد انتسابهم، وليس بعصابة، ولا بخلال، لما يرى من التجلة بين الناس، ولا يعلم كيف كان حدوثها، ولا سببها، ويتوهم أنه النسب فقط»[1].

وقد أخرج أحمد وغيره في مسنده، من حديث زياد بن لبيد، أن رسول الله ﷺ ذكر شيئًا، ثم قال: **«وذلك حين ذهاب العلم»**، قال زياد: فقلتُ يا رسولَ الله!: وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن، ونُقْرِؤه أبناءَنا، وأبناؤنا يُقْرِؤنه أبناءَهم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ثكلتك أُمُّك يا زياد! إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة! أو ليست هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل، ويُقرؤونهما أبناءَهم، وأبناؤهم يُقرؤونها أبناءَهم، ثم لا ينتفعون مما فيهما بشيء؟»**[2]

إن العلاقات الاجتماعية، التي تكون قائمة، بين أفراد جيل البناة، تكون فيها حرارة، وإيجابية، وتماسك، وهذه مواصفات، تستمد قوتها من وعي الأغلبين، من هؤلاء البناة بالغايات، واستيعابهم للمنطلقات،

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص١٣٧.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ٤/١٦٠، ٢١٨، ٢١٩، والحاكم في المستدرك، ١/١٠٠، وابن ماجه في سننه، حديث رقم ٤٠٤٨، وأخرجه النسائي في كتاب العلم، رقم٧٣، والترمذي والدارمي وغيرهم ، من حديث عوف بن مالك، وهو حديث صحيح، انظر استيفاء تخريجه في كتاب العلم للنسائي، ص١٩١.

وتشبعهم بالقيم، واشتراكهم في الثقافة والأفكار.. فيكون النسيج قويًا.. وإذا لم يتم الاهتمام، بنقل هذه الامور، إلى الأجيال التالية، يحل الاهتراء محل القوة، والصراع محل التعاون، والتنابذ محل التآلف، والتنابز محل الحوار، بل إن هذه القوارض الاجتماعية، في كثير من الأحيان، تورث، ولا سبيل إلى تلافي هذه الأمور، إلا بالوعي بها أولاً، وتشخيصها بدقائقها ثانيًا، ثم تفعيل أداة التربية، ووسائلها، وقنواتها، بما فيها المجتمع، باعتباره المربي الوسيط، الأخطر، ثالثًا.. ولست أحسب المجال ينفسح لتفصيل أكثر في هذه القضايا.

السبب الثاني: تضخم الذوات:

الفُرقة هي الحالة، التي يبلغها المجتمع، حين يفقد خصيصة الانسجام، فيتفرق أفراده ذرات، من جراء تضخم ذواتهم ،عند أنفسهم، فيصبح المجتمع، عاجزًا تمامًا، عن أداء نشاطه المشترك، إذ يتعطل الحوار البناء، المتجه إلى حل المشكلات، ليحل محله النقاش العقيم، الذي يروم إثبات الذات، فيصبح كل الجهد المبذول، مجتثًا عن الواقع العيني، ويضيع هدرًا، في عالم التنافس والتقايس، الخاويين.. حين تضخم الذوات، يرفض كل فرد من أفراد المجتمع، أن يَشْذُبَ من حجمه، عند نفسه، ولو شيئًا يسيرًا، ليسهل التساكن، ويصبح ممكناً.. إنها ساعة غياب قيم خفض الجناح، والإيثار، والتضحية.. إنها بعبارة أوضح: ساعة الفُرقة، وذهاب الريح.

السبب الثالث: الاستبداد:

لقد قلنا في مقدمة هذا الفصل: إن الاستبداد والفُرقة، كلاهما سبب ونتيجة في آن، وبالفعل، فإن ما عانته، وتعانيه الشعوب الإسلامية، من استبداد حاجر، على حرية الرأي، تحت ذريعة، عدم شق الصف، والحفاظ على الوحدة، يكمن وراءه شروخ كبيرة، في جسم الأمة، إذ الكبت السياسي، في النهاية، وكما يقول الدكتور عبد المجيد النجار: «ليس إلا تخزيناً في الحقيقة، لأسباب الانفجار، الذي لا يلبث، أن يحدث يوماً ما، والشواهد قائمة هنا وهناك، في البلاد الإسلامية، ولو أتيحت حرية التعبير، ولو في شيء من الضبط، لكانت سبباً في التقارب، بين الفئات، والعائلات السياسية، من جهة، وبين الشعوب، والأنظمة الحاكمة، من جهة أخرى، ذلك لأن حرية الرأي، من شأنها أن تفضي إلى مناخ من الحوار، الذي تتدافع فيه الآراء، في تصريف شؤون الأمة، وذلك التدافع، ينتهي في الأخير، إلى قدر مشترك من الاتفاق، يخف به التوتر، الذي يُحدثه الكبت، ويهون فيه الأمر، على من أبدى رأيه، وجادل فيه، حتى ولو لم يكن له إلى التطبيق الواقعي طريق»[1]، وإلا فإن الاستبداد والكبت، يقلبان أفراد المجتمع إلى بواطنهم، حيث الغيظ المتميز، ولا باب للتعبير عن الرأي، إلا الانفجار، كما البراكين، فيتفرق المجتمع، ويطير شظايا.

---

(١) الدكتور عبد المجيد النجار، دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، ص٨٢.

السبب الرابع: الفقر في القيم:

أصول العلاقات الاجتماعية، هي القيم الثقافية، والأخلاقية، السائدة في المجتمع.. وتماسك المجتمع، وعدم تفرقه، رهين بتوافره على أرضية قيمية صلبة، تضمن وحدته.. والمجتمع الديناميكي، هو الذي تكون عنده قدرة، المحافظة على القيم الإيجابية، وإنتاج قيم جديدة، منسجمة، مع هويته، ومرجعيته العليا، الروحية والفكرية، قيم تكون قَمِينة، بتنظيم العلاقات الاجتماعية، بشكل منضبط، وقابل للتعدية إلى الآخر، من مختلف أجيال، وطبقات المجتمع.

ففي لحظة تاريخية معينة، يكون المجتمع محتاجًا، إلى قيمة التضحية، لمواجهة أخطار مؤكدة، وفي أخرى، يكون محتاجًا، لإشاعة قيمة الإخاء، أو قيمة العلم... فإن لم يكن المجتمع متوافرًا، على آليات، تفعيل، أو إنتاج القيم، فإن الخراب، يدب إليه، ليصير بعد ذلك أحاديث.

وقد شهد التاريخ، كيف أصَّل القرآن الكريم هذه القضية، حين أشاع قيمًا، قَوَّت لُحْمَةَ المجتمع الإسلامي الوليد، من مثل تأصيله لقيمة التضحية، عن طريق الآيات الكثيرة، التي تبين أجر الشهداء، والمنفقين في سبيل الله، والمؤثرين على أنفسهم، ولو كانت بهم خصاصة، وتأصيله لقيمة الإخاء، عن طريق الآيات، التي بينت المساواة، بين أفراد الجنس البشري، ووحدته في المصدر والمآل، ووحدة العدو الأصلي الشيطان، وتأصيله لقيمة التعلم والتعليم، عبر الآيات الحاضّة على ذلك.. مما استتب في المجتمع الإسلامي، وفي عقل أفراده الجمعي، وقوّى العلاقات

السائدة، فيما بين المسلمين، حتى أوصلها إلى درجة: **«مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحُمَّىٰ»**(1)، وبمُضِيِّ الحِقَب، فَقَدَ المجتمع الإسلامي السيطرة، على آليات تفعيل وإنتاج القيم، مما أفضى به، إلى واقع الفُرقة، والتشتت، واستقرار عدد من القيم الاجتماعية السلبية في رحمه... وهذه قضية تحتاج إلى تفكير، من أجل إبراز الآليات، المفعلة للقيم الموجودة، والمنتجة للأخرى المفقودة، والتي يشترط فيها، أن تكون ممكنة، وفعالة، متلائمة مع الواقع، الذي يراد تشغيلها فيه... ومنسجمة مع مرجعية الأمة العليا: القرآن والسُّنَّة.

السبب الخامس: ألغام استعمارية:

وهي ألغام غرسها الاستعمار، في واقعنا، بوعي، وفنية، كبيرين، فهي تنفجر، أو تُفَجَّر في وجوهنا، لتُخَلِّف، أوخم الآثار في مجتمعاتنا... وعلى رأس قائمة هذه الألغام، المغرَّبون من أبنائنا، أسرانا الفكريون، أو كما يسميهم، الرئيس علي عزت بيغوفيتش: «الأبناء المدللون»، الذين ضمهم إليه الاستعمار، في مختلف أوطاننا، واستطاع، أن يحدث في نفوسهم الشرخ، الذي انداح منها، وعبرها، إلى المجتمع كله، فقد استطاع الاستعمار، أن ينشئ أجيالاً، مجتثة عن أصالتها، لا أدوات تحليل لها، منبعثة من كينونتها، ولا لغة، ولا رؤى وتصورات، إلا تلكم الغربية، فأصبح هؤلاء، لا يستطيعون النظر إلى واقعهم،

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، حديث رقم ٦٠١١، ومسلم في كتاب البر، حديث رقم ٦٦.

إلا بِمُقَل غربية ، وقد شجع على ذلك، تَرَهُّل بنية الثقافة الإسلامية، بتضافر وطأة عصور الانحطاط الشامل، الذي مرت به الأمة الإسلامية عمومًا، ووطأة الاستعمار، فكان هذا القبيل من مثقفينا، يجدون تزكية، لنبذهم للثقافة الإسلامية، في جهلهم بها أولاً، وفي الضحالة، التي يقدمها بها فريق من «العلماء» ثانيًا، وفي السجلات والمؤلفات، التي يطبعها الجمود، والتقليد، والإرهاب الفكري، ثالثًا، ثم في التشويهات، والافتراءات الاستشراقية الغربية والمحلية، التي ألصقت بتاريخها، رابعًا، فحصلت النُّفْرَةُ، نَفْرَةٌ وتباعدٌ، عُضْدًا بالتقاعس المشترك، عن فهم الآخر، ودراسته بما يكفي، وبطريقة موضوعية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية عُضْدًا، بعدم امتلاك أرضية صلبة من ضوابط الحوار، وأخلاقياته، مما أفسح المجال واسعًا، للإقصاء، والإلغاء، والتنابز، بدل التحاور والتفاهم.. وقد تسبب انفصام جسم الأمة هذا، في مَيدان أرضية المُسَلَّمَات، التي ينبغي أن يتم إليها التحاكم، في حالة الخلاف، إذ أصبح لكل فريق مرجعيته، التي يصدر عنها، وإنَّ تلافي هذه المشكل، لا يمكن أن يتم إلا بتوحيد المرجعية، ولا وَلِيجَة، إلا بالحوار الشفاف، النزيه، العليم، الطالب للحق، المُؤْثِر له عما سواه.

وقد تَقَلَّد كثير من هؤلاء الأسرى الفكريين، أهم وأخطر المناصب، في أوطانهم، فهم لا يزالون ماضين في قرضهم، لخيوط شبكة علاقاتنا الاجتماعية، بوعي، أو بغير وعي، غير أنه -وبفضل الله- بدأنا نرقب بأملٍ أَوْبَةَ العديد منهم ، إلى حِمىٰ دينهم، وأصالة أمتهم، مما يبشر - إن شاء الله - بخير، تبشيراً ينبغي أن يسر ولا يغر.

وهذه قضية أخرى، وجب التفكير في أساليب ناجعة لمعالجتها.

ومن هذه الألغام، أيضًا البيروقراطية المقيتة، التي خلّفها الاستعمار، وأخذناها عنه بسذاجة، دون أن نتنبه إلى آثارها السلبية المفرقة، وهي عبارة عن نظم إدارية، كانت منسجمة مع الواقع الاستعماري، لأنها تنظم العلاقة، بين المغتصِب، والمغتصَب، بين المستكبر، والمستضعَف.. حين لم نتنبه لهذه القضية، تجرعنا مرارتها فُرقة، وشتاتًا، وعداءً في مجتمعاتنا، مما يستوجب ثورة إدارية حقيقية، لتلافي هذه السلبيات.

من هذه الألغام كذلك، ما أججه الاستعمار، ويؤججه في عالمنا الإسلامي - ويجد للأسف استجابة، من بعض أبنائنا له - من نعرات طائفية وإقليمية، أسهمت في تشتيت أمتنا، وإيقاظ نيران فتن، وحروب، في مختلف أرجائها، مما ينبغي أيضًا، أن تتخذ الإجراءات اللازمة لمواجهته.

كل ذا، ناهيك عن الإعلام الغربي، المتصهين، الذي لا يلبث قاصفًا لنا، من أجل إحداث المزيد، من أنواع الفُرقة، والخلل، الاجتماعيين.

إن المجتمعات حين تذهب مُزعًا، من جراء الفُرقة، يصبح من المتعسر فيها -وكما ذكرنا آنفًا- تبني الناس هموم بعضهم بعضًا، أفرادًا كانوا، أم جماعات... وقد أشرنا في بداية هذا المبحث إلى أن التوجيهات، والأخلاق، والقيم الإسلامية، تمثل المصدر المكين، لأقوى أنواع التلاحم، والوحدة، بين أفراد المجتمع الإسلامي.

وفيما يلي بيان بعض ذلك، من خلال تناولنا بالدرس في هذا السياق، لا في غيره، لأصل التوحيد في الدين الإسلامي.

الإســلام دين توحــيد

التوحيد هو المبدأ الإسلامي، الذي عليه ينبني قوام هذا الدين، فقد جاء الإسلام، بتوحيد الله، وتوحيد الخلق، فالخليقة كل متكامل، لأنها من صنعة الواحد الأحد، كما جاء الإسلام بتوحيد الإنسانية، فالبشر يرتبطون جميعًا، باعتبارهم مخلوقين، بخالقهم، فجوهر بناء وجود الأشخاص نقي، وخال من اعتبار الخصائص العرقية والسلالية.. وهو ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣)، فالتعصب العنصري، مشير بطبيعته للشقاق والفُرقة، كما أن وحدة الإنسانية في الإسلام، مفادها، أن جميع أفرادها يشتركون، في تحمل الأمانة، أمانة الاستخلاف في الأرض، قصد تعميرها، وإصلاحها، عبادة لله.

وقد عد الله التفريط في الوحدة، موجبًا لعذابه، حين قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٠٥).. وجدير بالإشارة، أن هذه المعتقدات، ليست معلقة، بدون قنوات، تمر بها إلى الواقع، بل يلُفُّها نظام تشريعي شامل، ينزلها على واقع الناس، ويمكّن لها فيه.

وهذه بعض معالم هذا النظام:

الحض على الإخاء:

فقد حض هذا الدين أتباعه، بنصوص كثيرة، على أن يتآخوا، فجعل الإخاء ثمرة الإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (التوبة: ٧١): وقال سبحانه في حض المؤمنين على التآخي والتلاحم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤).. ولعل كون اسم هذه السورة، التي وردت فيها هذه الآية، سورة الصف، أمر له أبلغ الدلالات.

وقال رسول الله ﷺ: **«لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا... وكونوا عباد الله إخوانًا»**(١).

وفي حديث أخرجه الإمام أحمد، عن زيد بن أرقم، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كل صلاة: **«اللهم ربَّنا وربَّ كُلِّ شيءٍ ومَلِيكَه، أنا شهيد أن محمداً عبدُك ورسولك، اللهم ربَّنا وربَّ كُلِّ شيءٍ ومَلِيكَه، أنا شهيد أنّ العباد كلهم إخوة»**(٢).

وقد امتن الله عز وجل، على رسوله ﷺ، ومن خلاله على المؤمنين،

---

(١) أخرجه مسلم، في كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٣٠.
(٢) أخرجه الإمام أحمد، في مسنده ٤/٣٦٩.

بأن ألف بين قلوبهم، فقال عزّ من قائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٢-٦٣).

وبيّن ﷺ أن الأخوة، في المجتمع الإسلامي، عامة وشاملة، حتى للسيد مع عبده، حيث قال: «**إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، ولو شاء جعلكم تحت أيديهم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»(١).

وقد أحاط الإسلام هذه الأخوة، بمجموعة من التدابير الوقائية، فنهى عن السخرية، والتنابز بالألقاب، والإكثار من الظن، والتجسس، والغيبة، وهي أمور، كلها تفتت المجتمعات، وتخلخل بنيانها، فقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١١-١٢).

---

(١) متفق عليه، من حديث أبي ذر .. وخولكم، معناها: حشمكم وأتباعكم.

ونهى عن **العصبية**، وتبرأ مِن كل مَنْ يدعو إليها، فقد قال رسول الله ﷺ: **«ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»**[1].

وحذر من **مكائد غير المسلمين**، ودسائسهم، للتفرقة فيما بينهم، فقد أورد غير واحد من المفسرين، أن أحد اليهود غاظه ما رأى عليه المسلمين، من الأوس والخزرج، من ألفة، فألب بعضهم على بعض، حتى حملوا السلاح، وتواعدوا بالحرة، وكادوا يقتتلون، لولا رحمة الله، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(آل عمران: ١٠٠-١٠٣).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، حديث رقم ٥١٢١، وروى الإمام مسلم في صحيحه حديثًا بمعناه، لفظه: «من قُتل تحت راية عِمِّيَّة، يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فقتلة جاهلية»، كتاب الإمارة، حديث رقم ٥٧. وانظر كتاب الدكتور يوسف القرضاوي: (ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده)، فقد أفدت منه كثيرًا، في هذا الباب، وفي غيره.

وحـــذر تعـــالى من الفُـــرقة، والاختـــلاف، فقـــال سبحانه:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

وأمر تعالى باتباع صراطه المستقيم، فذلك طريق العصمة، من الفُرقة، فقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

ونهى عن الخبائث، المفضية إلى الفرقة، والعدواة، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة: ٩١).

وقال تعالى محرمًا السحر: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٠٢).

كما أمر تعالى بإصلاح ذات البين، فقال جل شأنه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: ١٠).

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال لأبي أيوب، رضي الله عنه: «**ألا أدلك على تجارة؟**» قال: بلى. قال: «**صِل بين الناس، إذا تفاسدوا، وقَرِّب بينهم، إذا تباعدوا**»[١].

وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم على أفضل من درجة الصيام والصدقة؟ إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة...**»[٢].

ومن حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**سِباب المسلم فُسوق، وقتاله كفر**»[٣].

وعن أبي أيوب، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيانِ، فيُعْرِض هذا ويُعْرِض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[٤].

---

(١) أخرجه البزار والطبراني، كما في مجمع الزوائد، ٨/٧٩-٨٠.

(٢) رواه أبو داود، في كتاب الأدب، حديث رقم ٤٩١٩، وصححه الألباني، وأخرجه الترمذي في سننه، حديث رقم ٢٦٤٠.

(٣) متفق عليه، البخاري في كتاب الإيمان، حديث رقم ٤٨، ومسلم في كتاب الإيمان أيضًا، حديث رقم ١١٦. وانظر كتاب: (ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده) للدكتور يوسف القرضاوي.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٢٥.

وعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**من سَرَّه بُحْبحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ، وهو من الاثنين أبعد**»(١).

وتدخل في هذا الإطار، كل الآيات والأحاديث، الآمرة بإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وعيادة المريض، والتواسي والتكافل، فإنها كلها تحافظ على الوحدة في الأمة، وإنها لخيوط وإن بدت رفيعة، فإن بساط الوحدة، لا ينسج إلا بها جميعًا.

وقد كان هذا البعد الوحدوي، حاضراً عند فقهاء الأمة، وعلمائها، وهم ينظّرون في مجال الفقه الإسلامي، وأصوله، ولعل في فهم الإمام الشافعي، رحمه الله، لدليل الإجماع، والذي أدلى به في كتاب (الرسالة)، مؤشراً على كون الوحدة، أصلاً ضروريًا، لا يمكن إدراك كُنْه شريعة هذه الأمة، ولا طبيعتها، وبنيتها، إلا بالوقوف عليها، حيث قال رحمه الله:

«إذا كانت سنن رسول الله ﷺ لا تَعْزُب عن عامتهم، وقد تَعزُبُ عن بعضهم، ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف، لسنة رسول الله ﷺ، ولا خطأ، إن شاء الله، فإن قال: فهل من شيء يدل على ذلك، وتشد به؟ قيل: أخبرنا سفيان، بن عبد الملك، بن عمير، عن عبد الرحمن، بن عبد الله، بن مسعود، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «**نَضَّرَ اللهُ عبداً سمع مقالتي، فحفظها ووعاها وأدَّاها، فَرُبَّ حامل فقهٍ غير فقيه، ورُبَّ**

---

(١) أحمد، ٢٦/١ ، الحديث رقم ١٧٧.

حامل فقه لمن هو أفقه منه، ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم، تحيط من ورائهم»[1].

أخبرنا سفيان، عن عبد الله، بن أبي لبيد، عن سليمان، بن يسار، أن عمر بن الخطاب، خطب الناس بالجابية، فقال: إن رسول الله ﷺ، قام فينا كمقامي فيكم، فقال: **«أكرموا أصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب، حتى إن الرجل ليَحْلِف ولا يُسْتَحْلَف، ويشهد ولا يُسْتَشْهَد، فمن سَرَّه بُحبحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذِّ، وهو من الاثنين أبعد**.. الحديث»[2]، قال: فما معنى أمر النبي ﷺ، بلزوم جماعتهم؟ قلت: لا معنى له إلا واحد.. قال: فكيف لا يحتمل إلا واحداً؟ قلت: إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان، فلا يقدر أحد، أن يلزم أبدان قوم متفرقين، وقد وجدت الأبدان، تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين، والأتقياء والفجار، فلم يكن في لزوم الأبدان معنى، لأنه لا يمكن، ولأن اجتماع الأبدان، لا يصنع شيئاً، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى، إلا ما كان عليه جماعتهم، من التحليل والتحريم، والطاعة فيهما... وإنما تكون الغفلة في الفُرقة، فأما الجماعة، فلا يمكن فيها كافة غفلة، عن معنى كتاب، ولا سنة، ولا قياس، إن شاء الله»[3].

---

(١) أخرجه أحمد، ١/٤٣٦-٤٣٧ . حديث رقم ٤١٥٧ ، والترمذي، ٣/٣٧٢.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) الإمام الشافعي، الرسالة، ٤٧٢-٤٧٦.

وبالنظر إلى كل ما مر معنا، لا نتردد، في أن نقرر: أن حفظ الوحدة، هي الضرورية السادسة، التي ينبغي، أن تنضاف إلى الضروريات الخمس المقررة، من لَدُن علماء الأمة، وهي: الحفاظ على، الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال.. فهذه ضروريات خمس، بالإضافة إلى ما مر معنا، من فرش تأصيلي، قد أثبت لنا الدرس التاريخي المُرُّ، أنه من غير الممكن الحفاظ عليها، إن لم نحافظ على الوحدة، بين كل أعضاء الأمة الإسلامية.. ويعجبني بهذا الصدد أن أستشهد بنص للمستشار طارق البشري حفظه الله، قال فيه:

«إن الاستعمار لم يحكمنا إلا بالتجزئة، أدرك ذلك وفعله، ونحن لن نتحرر إلا بالوحدة، أدركنا ذلك، ولم نقدر عليه، فحكومات التحرر الوطني، التي قامت، لم تستطع أن تقطع وثاق التبعية تمامًا، وعلى مستوى العروبة وحدها، صرنا اثنتين وعشرين دولة، أي اثنتين وعشرين قطعة، ناهيك عن بلاد المسلمين.

وخبراء العسكرية يجزمون -فيما أعلم- بأن الإمكانات الكاملة، لأي من أقطارنا، لا تُمَكِّن من بناء نظام دفاعي كامل، لأي قُطْر، وأن الأمن القومي، لكل من أقطارنا، يمتد خارج حدوده الإقليمية الضيقة، ونحن نعلم، أنه لا يقوم مشروع قومي، بدون أمن قومي.

وخبراء الاقتصاد، يستبعدون إمكان حدوث نهضة اقتصادية مستقلة، في الإطار الإقليمي لأي من هذه الأقطار، ونحن نعلم، أنه لا استقلال في السياسة، بدون استقلال في الاقتصاد، ومهما تكن وطنية الحاكمين، فإن المحددات الاقتصادية، والعسكرية، على إدارتهم السياسية، لا تُمَكِّنهم من إطلاق المشيئة الوطنية، إلى المدى الضروري.

إن التجزئة، سوت بيننا في التبعية، فكما أن الفقير من أقطارنا، يَرْسُفُ في فَقْرِه، فإن الغَنِيَّ منها يَرْسُفُ في غِنَاه، وكما أن كثيرَ السكان في أقطارنا، يعاني من كثرة السكان، فإن قليل السكان يعاني من هذه القلة، ومن هو في وضع سكاني متكافئ، ومتوازن، لا نجده في حال أفضل، من ذوي الكثرة، والقلة، وهكذا فإن كل عنصر، من عناصر وجودنا، قد وقع بالطريقة التي تجعله عنصر إضعاف، وليس عامل قوة»[1].

لقد تلبست الفُرقة بالمسلمين، حتى امتدت جذورها، في نفس كل فرد من أفراد الأمة، وإن التكافل، والتبني المتبادل، من لدن الناس، لهموم بعضهم بعضًا، أمور، لا يمكن أن تتم، إلا إذا التأم شمل الناس، وتجانفوا عن الفردانية، واستبدلوا بها الوحدة، التي هي العاصم، من كل أنواع الضعف، والانسحاق.

أما بعد:

فهذه جملة أسباب، ارتأيت، أنها كامنة وراء حالة التردي، التي اجتاحت الأمة، وجعلت أهلها شيعًا، كل حزب بما لديهم فرحون، لا يَأْبه بعضهم ببعض، ولا يتبنى بعضهم همومَ، ولا آلامَ، ولا آمالَ، بعضٍ، مما مَكَّنَ منهم أعداءهم، وجعلهم نهبًا، لكل أنواع العلل، والأمراض الحضارية، وقد حرصت ما وسعني الجهد، الا اذكر علة، ولا مرضًا، إلا وذكرت معه ما إخَاله أَجِنَّةَ حلولٍ، تحتاج إلى دراسات إجرائية، من منطلق التنزيل، وفي أفق التقويم والتعديل.

والله المستعان.

---

(١) طارق البشري، مشكلتان، ص١٧.

خـاتمـــة

تبني هموم الناس -مبدئيًا- والسعي لإزالتها، وتفريجها قدر الطاقة، هيئة نفسية ملازمة المسلم حقًا.. وفي كتاب الله، وسنة مصطفاه ﷺ، نظام تربوي شامل، يتغيّا، تثبيت هذا الخلق في نفوس المسلمين، مما قد مر معنا بيان بعض جوانبه، في فصول هذا البحث.. فههنا آلية مركزية، من آليات حفظ الأمة، وبنيانها، تضمن توطيد، وتوثير شبكة العلاقات الاجتماعية، بين أفرادها ومؤسساتها، كما تضمن للأمة، نظامًا حمائيًا، ضد كثير من العلل الحضارية، كالفُرقة، والاستبداد، والاستضعاف، والظلم، والفقر، والتحييد، وغيرها..

لقد حفظ الله بهذا الخُلُق -رغم ما أصابه من فلول- الأمة، من أن تذهب بَدَدًا، في أحلك لحظات تاريخها.. وما أحداث خَلَت، ومواقف سلفت، كهبوب المعتصم، لإنقاذ امرأة من براثن الروم، حين نادت: «وا معتصماه»، وعبور يوسف بن تاشفين، تاركًا عاصمة مُلكه، إلى الأندلس، من أجل ترتيب البيت الإسلامي هناك، ونهضة آل زنكي، وبَعْدَهم صلاح الدين مولاهم، من أجل استنقاذ القدس، وصولات خير الدين بربروس، في البحر الأبيض المتوسط، من أجل حماية بيضة الإسلام، من غائلة أعدائه، ومفاداة الأسرى المسلمين -بغض النظر عن أوطانهم- بالإفرنج، من لدن جل الدولة الإسلامية، التي كانت قائمة، إلا خير مؤشر على الوظيفة، التي أداها، خُلُق تبني هموم الناس.

ورغم الشرخ الذي حصل، منذ وقت مبكر في أمتنا، بين الدولة، والمجتمع[1]، فقد بقيت المجتمعات الإسلامية، تتحرك ذاتيا، بفعل تأصل، هذا الخُلُق في كيانها، فقومة رجالات من أبناء هذه الأمة، في السالف من تاريخها، لتبني قضاياها، ودفع المخاطر، بكل أصنافها وضروبها عنها، وإن كانت حياتهم، أو حريتهم الثمن.. وتحرك آخرين في العصر الحديث، لمنازلة الاستعمار، والتخلف في العالم الإسلامي، وكذا تضامن المسلمين، بكل

(١) يتفاوت بين الأماكن والفترات التاريخية.

شرائحهم، وفي مختلف أرجاء الأمة، مع قضية فلسطين، وقضية البوسنة، وقضية الشيشان، وغيرها من القضايا -وما أكثر القضايا في أمتنا!- إلا مفعول سؤر الأيام والأحداث من هذا الخُلُق، الذي كاد قَدَحُنا منه يفرغ، وقد كان مُتْرَعًا، حال جدَّة البناء، لأننا لم نتنبه إلى ملئه من الشِرْعة النَّاضَّة بالخير والهدى، التي زوَّدَنا بها الباري.

إن هذا الخُلُق، كاللُّحْمَة لبناء هذه الأمة، وهو باعث الجهاد، والتضامن، والتكافل فيها.. وقد أدى غياب الوعي السنني، والممنهج به، والذي يمكِّن من تجديده، وتناقله بين أجيال الأمة، أدى ذلك إلى فَلِّه، والنيل منه، في كثير من جوانبه، حتى أضحى فعله فينا، أشبه بانتفاضات الجسد المهدود، غير المنضبطة، والتي يروم بها -بشكل أقرب إلى اللاإرادي- حماية نفسه.

لقد استهدف هذا الكتاب -ما استطعتُ- منهجة الوعي، بخُلُق تبني هموم الناس، ليكون وعيًا سننيًا، يُقدرنا على إعادة تجديده، وإنتاجه، في كل حين، بإذن الله.. كما جعل من همه التنبيه، إلى جملة أسباب، أدت إلى ضموره، وانحساره من حياة المسلمين، لتصبح هذه الأسباب السلبية، إذا طبقنا عليها «مفهوم المخالفة»، أسبابًا إيجابية، منتجة له، ومحافظة عليه، في واقعنا.

جعل هذا الكتاب من همه أيضًا، إثارة بعض القضايا الملحة، التي تحتاج إلى الدراسة والبحث، سواء من حيث التشخيص لها، أو البحث لها عن حلول، أو صياغة خطط الإنجاز والتنزيل، لهذه الحلول، وإقامة وسائل التقويم المستمر، الممكِّن من الاستدراك، وكذا التجاوز الإيجابي، خلال عملية التنزيل.

وبالجملة، فإن هذا الكتاب، لا يعدو -كما هو- كونه إجراءً ضمن جملة الإجراءات ، التي ينبغي أن تتخذ لمعالجة إصابة الأمة في هذه الوسيلة ، من وسائل، نمائها.

ثم ختامًا، فإنني أسأل الله الجواد، أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، ويجعله ذخرًا لكاتبه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

والحمد لله رب العالمين.

الفهـــــرس

المـوضـــــوع

وكـــــلاء التـــوزيـــع

البلــد	اســـم الوكيـــل	رقم الهاتف	عنـوانــه
قــطــر	□ دار الثقـــــافـــة	٤١٤١٨٢	ص.ب: ٨١٥٠ ـ الدوحة
	□ دار الثـقـافـة «قسم توزيع الكتاب»	٤١٣٤٧١	فاكس: ٤٣٦٨٠٠ ـ بجوار سوق الجبر
الإمـارات	□ شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	٦٢٣٩٢٠	ص.ب: ٦٠٤٩٩ ـ دبي فاكس: ٦٦٣٧٦٨
البحرين	□ مكتـــبـــة الآداب	٢٣١٠٩٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ ـ البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
السعودية	□ مـؤسـسـة المؤتمن للتـجـارة	٤٦٤٦٦٨٨	ص.ب: ٦٩٧٨٦ الرياض ١١٥٥٧ المملكة العربية السعودية فاكس: ٤٦٤٢٩١٩
الكويت	□ مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ ـ حولي ـ شارع المثنى رمز بريدي: ٣٠٤٥ ٢ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	□ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥٠١ ـ ٦٠١٥١١ ٦٠١٩١١	ص.ب: ٩٦٠٦٥٤ ـ عمّان فاكس: ٦٠١٩٩١
اليمن	□ مكتبة الجيل الجديد	٧١٣٦٣ ـ ٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١ ـ ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤ ـ صنعاء
السودان	□ دار التـــوزيـــع	٧٧٥٥٨٥ ـ ٧٧٩٤٦٠	ص.ب: ٣٥٨ ـ الخرطوم
مصر	□ مؤسسة توزيع الأخبار	٧٤٨٨٤٤ ٧٥٨٨٨٨ ـ ٧٤٨٨٨٨	ص.ب: ٧ ـ القاهرة فاكس: ٥٧٤٨٧٠١
المغرب	□ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سبريس»	٢٤٩٢٠٠	ص.ب: 13008 - 70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 ـ فاكس: ٢٤٩٢١٤
إنكلترا	□ دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263 - 3071	Muslim Welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax : (071) 281 2687 Registered Charity No: 271680

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	٤٠ ديناراً
عُمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	١٠ دراهم
اليمن	٤٠ ريالاً

○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعدله .

كتاب الأمة
سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - قطر

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقياً : الأمة - الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

رقم الايداع بدار الكتب القطرية : ٦ لسنة ١٩٩٦
الرقم الدولي (ردمك) : ٠ - ٣٧ - ٢٣ - ٩٩٩٢١